"كتاب التوحيد"

للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب

فضيلة الشيخ/ عبد العزيز بن محمد السعيد

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله.

أما بعدُ:

فأسأل الله -عز وجل- أن يُوفِّقنا جميعًا إلى ما يحب ويرضى، وأن يأخذ بنواصينا للبر والتقوى، وأن يجعلنا هُداة مهتدين، غيرَ ضالين ولا مضلين، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، إنه على كل شيء قدير.

بادِئَ ذي بَدءٍ، أُذكِّر الجميع بما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من قوله: «ومَن سلَكَ طريقًا يلتَمِسُ فيهِ علمًا؛ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ به طريقًا إلى الجنَّةِ»، وهذا فضل عظيم لمن سلك الطريق الموصلة للعلم، فمن رحمة الله -عز وجل- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يَقُلْ وحَصَّلَ فيه عِلمًا قال: «يلتَمِسُ فيهِ عِلْمًا»؛ لأنَّ الناس إذا سلكوا هذا الطريق يختلفون فيما بينهم بحَسَبِ ما آتاهم الله -عز وجل- من الحفظ والفهم، فمِنهم من يكون ذا حفظ وفهم، ومنهم من يَقصُر عن ذلك بحَسَبِ ما آتاه الله، لكنْ للجميع نَصيبٌ في هذا الحديث، «مَن سلَكَ طريقًا يلتَمِسُ فيهِ عِلمًا»، فإذا سلك هذا الطريق والتمس العلم، والمراد به العِلم المُنَجِّي في الآخرة، وهو العلم بالله وآياته وأحكامه وشرعه ودينه؛ لأن هذا هو أصل العلم، وهو الذي امْتَنَّ

الله به على رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٣]، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]، هذا هو العِلمُ الذي يَنفَعُ العَبدَ، وغيرُه من العلوم بحَسَبِ درجاتها، لكنها لا تبلغ عِلم الشرع فيما جعل الله -عز وجل- فيه من الأجر والهداية والنور والحياة.

فنبيُّنا -صلى الله عليه وسلم- قال: «مَن سلَكَ طريقًا يلتَمِسُ فيهِ علمًا»، هذا يشمل من تَحَصَّلَ على العِلم ومن لم يَتحصَّلْ عليه، لكنَّ من سَلك هذا الطريق وحَرِصَ عليه وتَتَبَّعَه، فإنَّ له أجراً في هذا الحديث، وهو الذي ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم- «سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ به طريقًا إلى الجنَّةِ»، وهذا الوَعد لا يَتخَلَّفُ؛ لأنَّه وعدٌ بوحي من الله -جلَّ وعلا- لرسوله -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنَّ السُّنَّة وحيٌ كما القرآن وحي، ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤]، يَشمَل القرآن والسُّنَّة؛ لأنَّ السُّنَّة من عِندِ الله -عز وجل-، نزلت على النبي -صلى الله عليه وسلم- كما نزل عليه القرآن.

إذنْ: أُذكِّرُ بهذا الحديث حتى لا يَمَلَّ الإنسانُ من طلب العلم، وكيف يمل منه والله يقول لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤]؟! وكيف يمل الإنسان من هذا العلم الذي يَزيد به يَقينُه وإيمانه ويحيا به قلبُه ويَستضيء بهذا النور، ويحصل له من الخير والنفع في عاجل أمره وآجله ما يَحصُل؟! وكيف يَمَلُّ من كلام الله وكلام رسوله -صلى الله عليه وسلم- والكلام الذي يُؤدِّي إلى فَهمِ هذين الأَصلين العَظيمين.

إنَّ الإِنسانَ المُسلمَ يَشتاق ويَتمنى أن يَعرِفَ دَلالات كتاب الله، دَلالات آيات الكتاب العزيز والسُّنَّة المطهرة، هذا اشتياق كل مؤمن، لكن هذا ليس بالتمني ولكن يحتاج إلى سلوك طريق العِلْم، والإنسان في العِلم لا يَستصغر نَفْسه، بمعنى لا يقول: إني صغير السن، لا أحضر العلم، ولا أيضًا يرى أنه قد بلغ سِناً كبيرة لا يستطيع معها تحصيلَ العلم، فالعِلم يؤتيه الله -عز وجل- من يشاء ويَقسمه بين عباده كما يَقسم بينهم أرزاقهم، كما أن الكبير الذي ولو بلغ الثمانين والتسعين والمئة من عمره يطلب الرزق، كذلك يطلب العلم، والصغير أيضًا يطلب العلم، لهذا لما قيل لبعض السلف أظنه إما الأعمش أو ابن مهدي لمَّا رأى بعضهم عنده شبابًا صغارًا يطلبون العلم، فكأنه استقل مِن قَدْرِهم، فقال له: هذا غَرْسُ الإسلام، غرس الإسلام الصحابة الذين كانوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- كانوا صغارًا، والعلماء الذين أقام الله بهم هذا الدين ونَشَرَه بهم كانوا صغارًا طلبوا العلم وهم صغار، ثم حملوه إلى الأمة وهم كبار.

فالشباب الصغار هم غرس الإسلام؛ لأنَّ من وهبه الله -عز وجل- عقلاً وحرصًا على العِلم، فإنه يدرك في صِغَرِه ما لا يدركه في كِبَرِه، وهذا أمر معلوم، ولهذا لا بدَّ من التَّنبُّه إلى هذا وهو أن الإنسان لا يستصغر نفسه، يقول: أنا صغير لا أطلب العلم، لا، ولا يقول: أنا كبير لا أطلب العلم، ولا يستحي من طلب العلم ولا يستكبر عليه، فإنَّ هذا العلم لا يَناله مُستَحْي ولا مستكبر، فينبغي التنبه لهذا والحرص على العلم والإخلاص لله -عز وجل- فيه، ومن فعل ذلك رَفَعَه الله -عز وجل- في

الدنيا والآخرة، ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

أما اليوم نبدأ -إن شاء الله- في "كتاب التوحيد"، وهو "كتاب التوحيد" للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن مُشرَّف التميمي النجدي، المولود سنة ألف ومئة وخمسة عشر، والمتوفى سنة ألف ومئتين وستة، فعُمِّر رحمه الله وغفر له ورفع درجته وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة، عُمِّرَ أكثر من تسعين عامًا، قضى جُلَّها في الدعوة إلى توحيد الله واتِّباع النبي -صلى الله عليه وسلم- مع الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة والجهاد في سبيل الله، مُتأسِّيًا في ذلك برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه وأئمة الهدى والدين من التابعين ومن جاء بَعدَهم.

وقد نشر الله -عز وجل- به وجدد الله -عز وجل- به الدين، وأقام به الملة بعدما انتشر الشرك والبدع والخرافات في جزيرة العرب وفي نجد على جهة الخصوص، بل والعالم كله في ذلك الوقت كان يتخبط في كثير من ظلمات الشرك والبدع والخرافات.

فكانت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوة مباركة، جَدَّدَ الله -عز وجل- بها الدين وذلك بالدعوة إلى إخلاص الدين لله وحده لا شريك له، وإخلاص المتابعة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وهما أصل الدين، ولا تزال دعوته مُثمِرة إلى يومنا هذا بفضل الله -عز وجل-، فكثير من بلاد المسلمين التي انتشرت فيها السُّنَّة وقُضِيَ فيها على البدعة وهُجِرَتْ فيها القباب والقبور التي كانت تُعبد من دون الله،

كثير منها من بركات دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-، ولم يأتِ بجديد، ولكنه جَدَّدَ دين النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي قد اندرس في كثير من أقطار الأرض، ولهذا ينبغي أن نُعنَى بشأن التوحيد؛ لأنَّ مَن عَلِمَ حال هذه البلاد قبل التوحيد وما هم عليه من الضلالات والبدع والشركيات والتَّفرُّق والاختلاف، ثم ما آل إليه الأمرُ من التوحيد والاتِّباع والاجتماع؛ عَلِمَ أن البركة والخير كله في اتباع ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-، وعلم أن هذا التوحيد هو أصل الوحدة، وأصل الائتلاف وأصل الخير والبركة الذي يعم أقطار الأرض.

ولا شك أن معرفة التوحيد ولا سيما في هذا الوقت ضرورة، لماذا؟ لأن الشرك والبدع تُنشَر اليوم على نطاق واسع عبر التقنية الحديثة، فإذا صادفت قلوبـًا لا تعرف التوحيد تَمكَّنَ فيها الشركُ والبدع، ولذا وجب الاهتمام بجعل التوحيد اهتمامًا بالغـًا، ذلك بمعرفة ما يجب علينا من حق الله تعالى في التوحيد حتى لا تُؤثِّرَ في المؤمن هذه الشبهاتُ التي تُقال وتُنشر في هذه الوسائل، وكذلك تعلم التوحيد ضرورة؛ لأنَّه هو الذي سيواجه به ربَّه، وأول سؤال في قبر العبد: مَن ربك؟ ثم ما دينك؟ ثم من نبيك؟ هذا هو التوحيد، فمن لم يعرف التوحيد فإنه لا يُجيب، فمن عرف التوحيد وعمل به، فإن الله -عز وجل- يُوفِّقه لإجابة الملكَين، كما في حديث فتنة القبر.

كذلك هذا التوحيد ضرورة من حيث إن معرفته تُثبِّتُ قلب العبد على دين الله -عز وجل-، ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، من عرف التوحيد ثَبَتَ على الإسلام، ومن لم يعرف التوحيد انقلب على الإسلام، هذا التوحيد ضرورة؛ لأنَّه نور للقلب، ضرورة؛ لأن الله -عز وجل- يُزيل

به الظلمات، ضرورة؛ لأن حياة القلب والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة مرتبطة بهذا، لا يَغرَّنَّك كثرة المال، ولا الولد، ولا الجاه، ولا السلطان، ولا الرفاهية في الحياة كلها ولو أظهره بعض الناس، ما لم يكن قلبه مُوحِّدًا لله، فإنَّ في قلبه ظُلمةً، يحاول دفع هذه الظلمة بإتيانه كلَّ ما يرى أنه يحقق له السعادة، ولو كان في ذلك ارتكابٌ لحرمات الله -عز وجل- كلها؛ لأنَّ الله يقول -وخبره صدق-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

إذنْ: التوحيد ضرورة لا بدَّ من الاهتمام به، لا بدَّ من الاهتمام به، وبعض الناس الذين يُحاوِلون تَثبيطَ أهل السُّنَّة والجماعة وأهل التوحيد عن التوحيد بقولهم: دائمًا تركزون على التوحيد، دائمًا تركزون على التوحيد، هل الناس مشركون؟ نقول لهم: هل أبو بكر مُشرك؟ هل عمر مشرك؟ هل عثمان مشرك؟ هل عليٌّ مشرك؟ هل زوجات النبي -صلى الله عليه وسلم- مشركات؟ كان يقول لهم حتى وهو في السياق يذكرهم بهذا التوحيد، في سياق الموت، هل كانوا مشركين؟ ما كانوا مشركين، لكنْ هذا من باب بيان التوحيد والدعوة إلى الثبات عليه حتى يلقى العبد ربه على هذا التوحيد.

إذنْ: هذا التوحيد لا بدَّ من معرفته وفهمه، لا بدَّ من معرفته وفهمه حتى لا تَتخطَّفَ الإنسانَ شُبهاتُ الشرك والبدع، والإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله وغفر له وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء- ألَّف هذا الكتاب الصغير في حجمه الكبير في معناه، هو قليل، أوراق قليلة لكنه مهم يُبَيِّنُ لك أصل الإسلام

والدِّين، يُبَيِّنُ لك التوحيدَ الذي يجب عليك، والشرك الذي يجب عليك تركه، يُبَيِّنُ لك التوحيدَ الذي يجب عليك الإتيان به، ويُبَيِّنُ لك الشرك الذي يجب عليك أن تَحذَره وأن تَجتنبَه.

وهذا الكتاب "كتاب التوحيد" للإمام محمد بن عبد الوهاب الحقيقة -كما قلنا- كتاب عظيم، مشتمل على الآيات والأحاديث والآثار وبعض النُّقول عن العلماء، ثم هناك في نهاية الباب يذكر مسائل، هذه المسائل له قد استنبطها من الوارد في الترجمة، فكتابه قائم على الكتاب والسُّنَّة والآثار المنقولة عن الصحابة وأهل العلم ليس له فيه إلا المسائل، وهذه المسائل هي عبارة عن توضيح فقط وكثير منها ظاهر، وبعض الأبواب وصل فيها إلى ثلاثين مسألة، وبعض الأبواب لم يذكر فيها إلا مسألتين، ولعله -إن شاء الله- في نهاية الكتاب نذكر عليه ختمًا يُبَيِّنُ لنا ما في هذا الكتاب من الأمور المهمة من اعتماد المؤلف، ومن درجات الأحاديث الواردة فيها، ومن بيان لماذا يورد بعض الأحاديث وإن كان فيها ضعف، وأيضًا بيان جملة من تبويبات المؤلف التي أخطأ في فَهمِها بعضُهم، أو ظن أنها مكررةٌ في الباب، إلى غير ذلك من المسائل المهمة، لكن نشرع الآن -إن شاء الله تعالى- في "كتاب التوحيد".

***

{بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين.

قال الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى-:

(بسم الله الرحمن الرحيم "كتاب التوحيد" وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾ الآيات.

قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "من أراد أن ينظر إلى وصية محمد -صلى الله عليه وسلم- التي عليها خاتَمُه؛ فلْيقرأْ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً﴾ الآية.

وَعَن مَعَاذِ بنِ جَبَلٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: كُنْت رَدِيفَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: «يا مَعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ، ومَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدوهُ وَلَا يُشْرِكوا به شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِك به شَيْئًا»، قُلْتُ: يا رَسُول اللَّهِ! أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُم فيتَّكِلوا». أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحيحَيْنِ)}.

***

"كتاب التوحيد"؛ أي: هذا "كتاب التوحيد"، وكلمة التوحيد كلمة شرعية كما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر -رضي الله عنه- في صفة حَجَّةِ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "فَأَهَلَّ بالتَّوحِيدِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْك، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لكَ لَبَّيْكَ".

وأيضًا جاء في جامع الترمذي من حديث جابر -رضي الله عنه- أن الله -عز وجل- يُعذِّب ناسًا من أهل التوحيد حتى إذا كانوا حُمَمًا -أي: فحمًا- أدركتهم رحمة الله -عز وجل-، قال: من أهل التوحيد، وفي حديث معاذ -رضي الله عنه- في صحيح البخاري وأصله في الصحيحين، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ ما تَدْعُوهُمْ إلى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ»، وفي حديث ابن عمر في صحيح مسلم «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: عَلَى أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ»، وفي حديث عمرو بن عَبَسَة في صحيح مسلم لما سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عما أُمِرَ به أو ما أُرسِلَ به؟ قال: «بصلة الأرحام وعلى أن يُوَحَّدَ اللهُ»، فكلمة التوحيد لفظ شرعي، وهذا من مميزات الإمام محمد بن عبد الوهاب أن غالب كلامه يتعلق إمَّا بالألفاظ الشرعية أو المصطلحات المعروفة عند العلماء وليس فيها شبهة من شبه الفلاسفة والمتكلمين والمناطقة، كلام واضح مُتداوَل بين أهل العلم ولا سيَّما السلف، أو تكون هذه الكلمات هي ألفاظًا وردت في القرآن أو في السُّنَّة كما سيأتي -إن شاء الله تعالى- حتى في بعض التراجم.

فهذا الكلام لمَّا قال: "كتاب التوحيد" سَمَّاه "كتاب التوحيد"، وقد سُبِقَ إلى هذا، ليس أوَّل من أحدث هذا الاسم هو الإمام محمد بن عبد الوهاب، "كتاب التوحيد" لابن خزيمة، "كتاب التوحيد" لابن مندة، "كتاب التوحيد" لعبد الغني المقدسي وغيرها، وهذه كُتُب سَبقت الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-، ابن خزيمة توفي سنة ثلاث مئة وإحدى عشرة، يعني قبل الإمام محمد بن عبد الوهاب بنحو تسع مئة سنة أو قريب من ذلك، ابن مندة توفي سنة ثلاث مئة وخمسة

وتسعين، يعني قبل الإمام محمد بنحو ثمان مئة سنة، فليست تسمية هذا الكتاب بدعًا؛ لأنَّ الثابت شرعا باللفظ الشرعي، وأيضًا سبقه غيرُه من أئمة الهدى الذين سَمَّوْا بعض كتبهم بـ "كتاب التوحيد".

إذنْ: هذا أولاً، "كتاب التوحيد" لفظ شرعي، لماذا يقال هذا الكلام؟ لأن بعض الناس ينتقدُ على الإمام محمد بن عبد الوهاب هذه الكلمة، وينتقد حتى على أهل السُّنَّة والجماعة هذه الكلمة -كلمة التوحيد-، وهذا البرهان من سُنة النبي -عليه الصلاة والسلام-، أمَّا كَونُ الله -عز وجل- واحدًا فهذا مليء في القرآن كما سيأتي -إن شاء الله-، لكنَّ كلمة التوحيد هذه وَرَدَتْ وثَبَتَتْ في الحديث، هذا أولاً.

ثانيًا: التوحيد هو مصدر وَحَّدَ يُوَحِّدُ إذا جَعَلَ الشَّيءَ واحدًا، والمؤمن في اعتقاده في ربه -عز وجل- لا يَعتقد إلا أن الله -عز وجل- واحد، واحد في ألوهيته، واحد في رُبوبيته، واحد في أسمائه وصفاته، بمعنى أنه لا يَشْرَكُه أَحدٌ في العبادة؛ أي: لا يعبد أحد معه، ولا يُعتقد في أحدٍ أنه يُدبِّرُ الكون سواه، ولا يُعتقد أنَّ هناك أَحدًا يماثل الله -عز وجل- في أسمائه ولا في صفاته، هذا هو التوحيد.

إذنْ: التوحيد معناه: إفراد الله -عز وجل- بالوَحدانيةِ في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

ثالثًا: التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام أو إلى قسمين، كلُّها معناها واحدٌ.

القسم الأول: توحيد الألوهية ويُسمَّى تَوحيدَ العبادة، توحيد الألوهية باعتبار نسبته إلى الله؛ لأنَّه الإله -سبحانه وتعالى-، وتوحيد العبودية باعتبار العبد، الذي باعتبار العبادة؛ لأن الله -عز وجل- يَعبُدُه عِبادُه، هذا توحيد يُسمَّى توحيد الألوهية.

ما معنى توحيد الألوهية؟

معناه توحيد الله -عز وجل- بأفعال العبد، بمعنى أن العبد يُصلِّي هذا فعل العبد، صلاتك لمن تكون؟ تكون لله، لا تَصرفها لغير الله، لا تُصلِّ لأحد كائن من كان، دعاؤك تدعو الله وحده، لا تدعُ معه غيره، لا تصرفْ هذه العبادة لغير الله، الذبح عبادة، هذه العبادة تَتَقَرَّبُ بها إلى الله ولا تتقربُ بها إلى غيره، وكذلك سائر العبادات.

إذنْ: الفعل فِعْلُك لكنْ فيه قصدٌ وتَوجُّه بالعبادة إلى الله تعالى، ولهذا يقول العلماء، يسمي العلماء هذا النوع من التوحيد: توحيد القصد والطلب؛ أن تَطلُبَ من الله المغفرة بهذه العبادة، وتقصده بهذه العبادة وتتوجه إليه دون غيره، هذا توحيد الألوهية.

الثاني: توحيد الربوبية، وهو توحيد الله بأفعاله؛ أي بأفعال الله، بمعنى أنك تعتقد أن الله -عز وجل- هو الخالق، وأنه هو الرازق، وأنه هو المحيي وأنه هو المميت، وأنه هو المدبر، يعني له الخلق -سبحانه وتعالى- وله التصريف والتدبير، فلا تعتقد أن أحدًا يشارك الله -عز وجل- في ذلك، بل تقول وتعتقد وتوقن بأن الذي خلق السماوات والأرض والجبال والجن والإنس والأنهار والبحار والهواء والبر والبحر، كل هذه مخلوقات لله هو الذي خلقها، هذا الرزق الذي يعم الخلائق كلها

من الله وحده، تقلُّب الليل والنهار، وتقلُّب الأحوال، وتقلب أحوال الناس من الغنى إلى الفقر أو العكس، ومن الصحة إلى المرض أو العكس إلى غيرها، كل هذا تدبير الله -عز وجل- وحده، لا أحد يشاركه، هذا توحيد الربوبية، الفعل فعل الله، لكنك تعتقد أن الله لا يشركه أحد في ذلك.

ثم يأتي النوع الثالث، القسم الثالث: وهو توحيد الأسماء والصفات، تعتقد أن الله -عز وجل- متصف بالأسماء الحسنى ومتصف بالصفات العلى، وأنه لا يماثله أحد فيها، لا يماثله ولا يساميه ولا يقاربه أحدٌ فيها، بل هو منفرد -جل جلاله- ومُتنزِّهٌ عن مشابهة المخلوقين فيها، فكمال الصفات والأسماء المطلق لله وحده لا شريك له، تعتقد هذا، هذا معناه، هذا معنى توحيد الأسماء والصفات، توحيد الربوبية والأسماء والصفات يسمونه توحيد المعرفة والإثبات؛ لأنَّه يُعرِّفُك بربك وتثبت به لربك -جل وعلا- الأفعال والأسماء والصفات، وعلى هذا عرفنا أن، قد تقول إنه قسمان وقد تقول ثلاثة أقسام؛ لأنَّ المسألة مسألة استقراء وتعبير فقط، وإلا فكلها واحدة.

المسألة الرابعة: (قال: "كتاب التوحيد") ماذا يريد المؤلف بـ التوحيد من هذه الأشياء الثلاثة؟

نقول: عامة ما في الكتاب يتعلق بتوحيد الألوهية، ومن هنا قال بعض العلماء: و"أل" هنا للعهد الذهني ليست للعموم؛ لأنَّها لو كانت للعموم لَشَملت أنواع التوحيد كلها، لكن المقصود به توحيد الألوهية أَصالةً، وما ورد فيه مما يتعلق بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات جاء تَبَعاً لذلك، هذه المسألة الرابعة.

المسألة الخامسة: هذا التوحيد، التوحيد المذكور هنا كيف قَرَّرَه المؤلف؟ حتى لا يُشكِلَ عليك أمرٌ آخَرُ، أو أنك تقول: كيف يقال هذا كتاب التوحيد وهو قد ذَكَرَ الشرك فيه، كثير من المسائل الشرك، باب من الشرك: إرادة الإنسان بعمله الدنيا، باب من الشرك: لُبس الحلقة والخيط، باب من الشرك، ذَكَرَ أبوابًا كثيرة في الشرك، والتوحيد يتقرر بشيئين: بمعرفة التوحيد، ومعرفة الشرك؛ لأنهما متقابلان ونقيضان، إما أن تكون مُوحِّدًا أو مشركًا، لا ثالث لها، إما موحد أو مشرك، لا ثالث لها، حتى الملحد مشرك؛ لأنَّه اتَّبَعَ هواه، هذا أولًا، ثانيًا: هذا الملحد يعتقد أن المادة هي التي خلقت، هذا شرك في الربوبية، إذنْ: هما متقابلان، التوحيد والشرك متقابلان، إما موحد وإما مشرك، ليس هناك شيء في الوسط.

إذنْ: هما متقابلان توحيد وشرك، عرفت التوحيد، وعرفت الشرك، وإذا عرفت التوحيد، عرفت الشرك، وإذا عرفت الشرك، عرفت التوحيد، والشيء أحيانًا يُبيَّن بالتعريف وأحيانًا بالمثال وأحيانًا بالنقيض، يُبيِّنه بما يناقضه، يعني أنت الآن تعرف الليل بماذا؟ بالنهار، لولا النهار ما عرفت الليل، لولا النهار ما عرفت الليل، لولا الحَرُّ لم تعرف البرد، لو كانت الدنيا كلها بردًا، طول مدة حياتك كلها برد ما تعرف الحر، يعني التعريف -تعريف الشيء- إذا عرفت نقيض الشيء عرفت الشيء.

إذنْ: نقيض التوحيد الشرك، فنعرف التوحيد من طريقين: إما معرفة التوحيد ذاته أو معرفة ما يناقضه وهو الشرك، أو معرفة ما يَقدَح فيه، إذا كان الشيء من الشرك الأصغر.

المسألة السادسة: إذا عرفنا أن هذا في التوحيد فقبل الشروع في الكتاب وهذا الكتاب سنُعلِّق عليه تعليقًا يسيراً، لكن في بعض المواضع تحتاج إلى بسط لأنها تُبين ما بعدها، أهم شيء عندنا هنا في هذا الموضع أن تُفرِّق بين توحيد الربوبية والألوهية، وقد ذكرنا المعنى قبْل قليل، لكنَّ التفريق بينهما مُهمٌّ، لماذا؟ لأن أكثر الذين وقعوا في الشرك من هذه الأمة لم يُفرِّقوا بين توحيد الربوبية والألوهية، ومن ثَمَّ الآن وقبلُ لمَّا يَتكلم عن التوحيد تقول له: لماذا يستغيث بأصحاب القبور؟ هذا صاحب القبر فيه ميت قد بَلِيَ ولم يَدفَعْ عن نفسه لا مرضًا ولا موتًا ولم يدفع عن نفسه شيئا، كيف تستغيث به؟ وتستغيث أحيانًا من أقطار الدنيا وفي وقت واحد وبلهجات مختلفة، ترى مثلاً هذا المقبور -صاحب القبر- في مصر أو في العراق أو في اليمن واحد يدعوه بلسان هندي، وواحد يدعوه بلسان عربي، وواحد يدعوه بلغة فرنسية، يدعونه في وقت واحد، يعتقد في هذا المقبور أنه يسمع اللهجات كلها واللغات كلها في وقت واحد، ما تتزاحم عليه ولا تختلف عليه وهو ميت في قبره، هذا من أين جاءهم؟ من الخلط بين توحيد الألوهية والربوبية، لماذا؟ يقول لك: أنا لا أعبده، صحيح أنِّي أستغيث به، لكن لا أعبده، طيب كيف أنت الآن تدعو هذا الميت؟ ويُصرِّحون يقولوا تستغيث به إذا وقعت في مُلمَّة أو في مصيبة تستغيب به تقول: يا بدوي! أغثني، يا حسين! أَغِثْني، يا عبد القادر! أَغِثْني، ولو كُنتَ في أقصى الأرض، يقول لك: لا، هذا ما هو شرك، هذا ليس بشرك، هذا متى يكون شركًا؟ يقول لك: يكون شركًا إذا اعتقد أن هذا الميت هو الذي يخلق، هو الذي يفعل بدون إذن الله، هو الذي يَفعَلُ بدون مشيئة الله، لكن أنا ما أعتقد فيه هذا، أعتقد أنَّ أفعاله

هـذه وإدارتـه للكـون كمـا يقولـون الأقطـاب والأوتـاد وغيـرهـم تـدير الكـون عنـد المتصوفة، أربعة أقطاب هي التي تُدير العالم، هؤلاء ماذا يقولون؟ يقولوا: هـذا يفعـل بمشيئة الله، ونحن نتوجه إليه لا لاعتقاد أنه هو الذي يفعله بنفسه دون مشيئة الله وقدرة الله، لكننا ندعوه لأنَّ اللهَ أَقْدَرَه على ذلك، تدعوه!! دعاء غير الله شرك، التوجه والقصد شرك، الدعاء عبادة، كيف تدعوه؟ كيف تذبح له؟ كيف تنذر له؟ يقول: لا، هذا ليس بشرك، الشرك الذي أعتقد فيه أنه يدير الكون ويحيي ويميت ويخلق ويرزق بدون مشيئة الله، لكن أنه يخلق بمشيئة الله ويرزق بمشيئة الله ويُحيي بمشيئة الله ويُميت بمشيئة الله ويُغيث الملهوف بمشيئة الله، وهذا كله الخلط في الفرق بين توحيد الربوبية والألوهية.

توحيد الألوهية فيه قصد، توجه، توحيد الألوهية أصله يتعلق بلفظ الإله، والإله كما قرره علماء العربية والشرع، الإله الذي تتوجه إليه أو الألوهية فيها معنى الخضوع والذل والمحبة، هذا الذل يتولد عنه الرجاء والخوف، ومن هنا قال العلماء: أركان العبادة ثلاثة: الخوف والرجاء والمحبة، يعني تعبد الله خوفًا منه، تعبد الله ترجوه، تعبد الله تحبه، أنت تحبه، إذا اختل واحد منها لم تكن عبادة؛ لأنَّ الخائف الذي لا يرجو ليس مُؤَلِّهًا، والراجي الذي لا يَخافُ ليس مُؤَلِّهًا، والمُحِبُّ غيرُ الخائف الراجي ليس مُؤَلِّهًا، إذن: الألوهية والعبودية فيها خضوع وخشية وذل لله -عز وجل-.

إذا طبَّقت هذه الصورة على كل من يُدعَى من دون الله، فإذا هي هي، يَعني الذي يتوجه لهذا الميت أو لهذا الحي يرجوه ويدعوه ويطلبه، عندما يأتي إنسان -وهذه

أشياء موجودة ليست غائبة، موجودة وحاضرة وتُفعل الآن- عندما يأتي من مكان بعيد إلى طاغوت من طواغيت الإنس يقابله ويقول: جئناك من مكان بعيد لتغفر لنا ذنوبنا، أليس هذا غاية الذل والخضوع؟! يأتي إلى مخلوق من أقصى الأرض ما يرَفع يديه إلى السماء ويدعو، ما يرفع يديه ويدعو الله ولكن يأتي إلى هذا المخلوق، لما تأتي لآخر تقول له يا أخي لا تدعُ فلانـًا، لا تدعُ حسينًا، لا تدعُ البدوي، ادعُ الله، يقول: أنتم ادعوا الله وأنا أدعو الحسين، أنتم ادعوا الله وأنا أدعو البدوي، هذا عنده خضوع لله؟! فيه ذل متذلل لله؟! منكسر لله؟! منكسر لمخلوق مثله؟! إذنْ: هو متوجه لمخلوق وقصد هذا المخلوق بالطلب، هذا توحيد العبادة الذي هو الشرك في ألوهية الله -عز وجل-، لا بد أن نفهم هذه القضية حتى لا يُلَبَّسَ علينا ويقال لك: يا أخي! هذا لا أنا أعتقد فيه أنه يخلق ولا يرزق، أنت الآن جعلته واسطة بينك وبين الله أو دَعوتَه من دون الله، والمشركون الذين كَفَّرَهم الله -جل وعلا- وقاتلهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واستحل دماءهم وأموالهم، هذا كان الشرك الذي كانوا عليه، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصـًا لَّهُ الدِّينَ * أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢- ٣].

إذنْ: جَعَلَ اللهُ -عز وجل- فِعْلَ المشركين مُقابلًا لفعل المخلصين، ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾، إذنْ: فِعلهم هذا ليس خالصًا، ليس دينًا خالصًا، هذا الفعل الذي يفعلونه مناقضٌ لِما كان عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبما أمر الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- به، ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصـًا لَّهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا

شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٤- ١٥]، من الذين عبدوا من دونه؟ هم ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، وهم الذين ذكرهم الله في سورة "يونس" ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ولهذا من أعظم المسائل الخطيرة وركز عليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب مسألة الشفاعة، اتُّخِذَ باب الشفاعة للإشراك بالله -عز وجل-، المشركون اليومَ من المنتسبين للأُمة الشرك عندهم في القبور والشفاعة والتبرك، الذين يزعمون التبرك وهو تبرك شركي ليس شرعيا، والاستغاثة الشركية التي يزعمون أنها من باب التوسل، هذه الأبواب الأربعة عند المشركين المعاصرين، تتناقش معه في مسألة ما، يقول لك: هذا توسل، هذه استغاثة شركية ليست توسلا شرعيًا ولا محموداً ولا ممدوحًا ولا جائزًا، تتكلم في الشفاعة، يُثبت الشفاعة التي أنكرها الله على المشركين، وينفي الشفاعة التي أثبتها الله للموحدين، وكذلك قضايا التبرك وغيرها كما سيأتي -إن شاء الله تعالى.

إذنْ: لا بد أن نُفرِّق بين النوعين: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، لا بد من التفريق، ليس من شرط توحيد الألوهية اعتقادُك في المخلوق ما تعتقده في الرب -عز وجل- من الخلْق والتدبير أبداً، المشركون كانوا يعتقدون أن الله هو الذي يخلق ويرزق ويُحيي ويُميت، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، كانوا يؤمنون بهذا، لكن ما نفعهم هذا،

وقاتلهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قاتلهم لماذا؟ لأنهم كانوا يعرفون الفرق بين توحيد العبادة وتوحيد الربوبية ليس كما الشأن في كثير من المعاصرين، عرفوا الفرق، فلذا لمَّا دعاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- لتوحيد العبادة أنكروه، ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً﴾ [ص: ٥]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥ - ٣٦]، إذنْ: هذا الفرق يجب معرفتُه.

بعد ذلك ننتقل إلى الكتاب ذاته، قال: (كتاب التوحيد)، إذنْ: نعرف كلمة التوحيد هنا المراد بها كما ذكره الشيخ سليمان المراد بها توحيد العبادة، وهذا الكتاب يجمع ما يتعلق بتوحيد العبادة سواءً بتقرير التوحيد ذاته أو ببيان ما يناقضه وهو الإشراك بالله أو ببيان ما يقدح في كماله الواجب من بعض الأمور التي ذكرها المؤلف -رحمه الله تعالى-.

وقول الله تعالى، طبعاً في الكتاب جميع التبويبات القادمة -إن شاء الله- وقول الله تعالى يجوز فيما بعد الترجمة إما العطف بالجرِّ وإما الابتداءُ بالضَّمِّ، تقول: "كتابُ التَّوحيدِ" وقولُ الله، أو: وقولِ الله، والأبواب القادمة كذلك، هنا قال المؤلف كتاب التوحيد وما ذكر الترجمة، ما بعدها يقول: باب كذا، باب كذا؛ لأنَّ الباب هو عبارة عن جزء من الكتاب، لكن هنا قال: "كتاب التوحيد"، وما ذكر ترجمة، ما قال: باب كذا، أولاً هذا يُفيدنا في معرفة عدد تراجم الكتاب، الكتاب طبعاً فيه ستة وستون بابًا، ومع المقدمة هذه "كتاب التوحيد" تصير سبعًا وستين ترجمة.

قال: (كتاب التوحيد، وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾)، ثُم ذكر أربع آيات تلي هذا، خمس آيات وأثر ابن مسعود وحديث معاذ -رضي الله تعالى عنهما-.

هذا الكتاب في مجموع ما ذكره المؤلف من الآيات والآثار يشتمل على أربعة مقاصد.

المقصد الأول: الحكمة أو الغاية من خلق الله -عز وجل- للجن والإنس، هذا أولاً.

ثانيًا: بيان الدين الذي اجتمعت عليه الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

وثالثها: بيان معنى التوحيد.

ورابعها: حُكم التوحيد.

هذه أربعة أشياء، يعني الترجمة هذه تضمنت أربعة أشياء: الحكمة من خلق الإنس والجن.

الثانية: اجتماع الرسل على التوحيد.

الثالثة: حكم التوحيد.

الرابعة: معنى التوحيد، وسيأتي -إن شاء الله- بيانه.

قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، هنا ذكر الله -عز وجل- وأخبر أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه -عز وجل- وجاء ذلك على

طريقة الحصر؛ لأنَّ "إلا" إذا وقعت بعد "ما" النافية أفادت الحصر، إذنْ: فالجن والإنس مخلوقون لعبادة الله، لم يُخلَقوا لشيءٍ آخَرَ، لم يُخلَقوا إلا لعبادة الله وما سوى ذلك من عمارة الدنيا ونحوها هي تَبَعٌ، أو هي وسيلة فقط، أما الغاية ما هي؟ هي عبادة الله -عز وجل-، الله خَلَقَنا ورَزَقَنا وأَمَدَّنا بالنِّعم، لكن هل نحن خُلِقْنا لنبني البنيات ونشيد الطرق ونعمر الأرض بالزروع والثمار والتجارات والصناعات والسكك الحديدية والطائرات إلى غيرها؟ لا، ولهذا، فالذين في بعض التفاسير المعاصرة أو بعض الكتابات المعاصرة تجد ماذا يقول؟ يقول: الإنسان مخلوق لعمارة الأرض، طبعًا هذا الكلام لا يصح بهذا الإطلاق؛ لأنَّه لو كان المقصود عمارة الأرض بعبادة الله وحده لا شريك له، فهذا معنى صحيح؛ لأنه هو المعنى الذي خلق الله العبادة من أجله، لكنَّ غالبَهم لا يقصد هذا المعنى، ولهذا عندما يتكلم المتكلمون مثلاً عن العبادات والصلوات وكذا، يفسرونها بمعنى دنيوي فقط، ولا يفسرونها بمعنى الآخرة، تجده يقول في الصلاة: هذه رياضة، الحج: هذا التقاء ومنافع وكذا، هذه المنافع تَبَعٌ ليست أصلًا، العبادات لله، أصلاً أنت خُلقت لعبادة الله وحده، هي الغاية من خلقك، لكن ما يأتي تبعًا لها مثل ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاًّ﴾ [الطلاق: ٢]، أنت اتقيت الله، فالله -عز وجل- رتَّب على امتثالك التقوى أن يجعل لك مخرجًا، وليس معنى ذلك أن الإنسان يتقي الله ليكون له في الدنيا مخرجٌ، هذا ما عبد الله، عَبَدَ الدنيا ولم يَعبُدِ الله، لكنْ ما يُرتِّبُه الله -عز وجل- من الآثار التابعة للعبودية له -سبحانه وتعالى-، هذا أمر فَعَلَه الله -عز وجل- بلُطفِه بعبادِه -سبحانه وتعالى-.

إذنْ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، طبعًا معنى "يَعبُدون" كما فسرها الإمام محمد بن عبد الوهاب في "الأصول الثلاثة" قال: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي: ليُوحِّدُون، من أين له الإمام محمد بن عبد الوهاب قال هذا الكلام؟ الإمام محمد بن عبد الوهاب سَبَقَه أئمة، الإمام البخاري في تفسيره، في الصحيح في الجامع بالتفسير فسَّر ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾: ليوحدون، وجاء بعده حتى من الشُّرَّاح المتأخرين كالعينيِّ وابن المُلقِّن فسروا ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾: ليوحدون، وهذا أيضًا منقول عمَّن تقدم عن بعض السلف أو بعض أهل العلم ممن تقدم حتى على البخاري.

إذنْ: فكلمة "ليوحدون" هذه الإمام محمد بن عبد الوهاب له سلف فيها، ما فسرها هكذا، ثم هي دَلالة القرآن، في معنى التوحيد كما سيأتي -إن شاء الله تعالى- .

إذنْ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، إذنْ: هي الغاية، هذا الخبر إذا أخبر الله -عز وجل- عن الغاية وكانت الغاية واحدة؛ وجب امتثاله، لكن من الناس من يمتثل ومن لا يمتثل؛ لأنَّ حكمة الله اقتضت أن يخلق الناس، فيجعل بعضهم مؤمنًا ويجعل بعضهم كافراً، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢]، حكمة الله اقتضت ذلك، لكن المطلوب منَّا، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ المطلوب منا عبادة الله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، هذه هي الآية الأولى.

الآية الثانية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، هنا ارتباط الآية بالتي قبْلها، لاحظْ أنَّ الإمام محمد بن عبد الوهاب لمَّا ذكر أن الله خلق الخلق لعبادته، قُلنا: هذه لحكمة والخبر هنا يقتضي امتثال الأمر، وأيضًا فيها تفسير التوحيد ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي: ليوحدون، إذنْ: كأنه يقول "كتاب التوحيد" كتاب العبادة، ثم جاء بالآية الثانية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، الآية هنا أوردها المؤلف -رحمه الله- لعلَّه أوردها لارتباط هذه الآية بالآية التي قبْلها من جهة أن الله -عز وجل- لما خلق الخلق لعبادته لم يتركهم هملًا؛ بل أرسل إليهم الرسل، فجاء بهذه الآية ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً﴾، أن الله يَقولُ: نحن خلقنا الناس لعبادتنا، فأرسلنا إليهم الرسل يدعونهم إلى هذه العبادة، ليُقيمَ اللهُ -عز وجل- عليهم الحُجَّة، ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، إذنْ: هذا ارتباط قد يكون مُراداً للمؤلف -رحمه الله-.

أمَّا الآية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، أخبر الله -عز وجل- بالخبر المؤكد بـ "اللام وقد"؛ لأن اللام للتوكيد، ﴿وَلَقَدْ﴾ و"قد" للتوكيد أيضًا، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً﴾، ما مهمة هذا الرسول؟ ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، ومثل هذه الآية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ومِثلُه قوله تعالى في أول سورة "النحل": ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، فإرسالُ الرسل -عليهم الصلاة والسلام- جاء لتحقيق

العبودية لله -عز وجل-، عبادة الله واجتناب عبادة الطاغوت، طبعًا الآية هذه تفسر لك معنى التوحيد، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فعبادة الله واجتناب الطاغوت متلازمان، لا يصلح أن تعبد الله ولا تجتنب عبادة الطاغوت، لو قال إنسان: أنا أعبد الله، لكن أعبد غير الله، هذا شرك، لو قال: أجتنب الطاغوت ولا أعبد الله، أيضًا هذا شرك ليس بتوحيد، التوحيد يجمع بين أمرين: بين عبادة الله وبين اجتناب عبادة الطاغوت، من هو الطاغوت؟ كل ما عُبِدَ من دون الله فهو طاغوتٌ، قد يَقولُ قائل منكم: عيسى عُبِدَ من دون الله، ومريم عُبِدَتْ من دون الله، والصالحون عُبِدوا من دون الله، كيف يكون طاغوتًا؟

قلنا: الطاغوت ليس معناه أنَّ كل من عُبِدَ من دون الله يَكون راضيًا بأن يُعبَدَ من دون الله، معنى الطاغوت هو المعبود الذي يُعبَد وهو راضٍ، لا، الطاغوت إذا نظرت إليه من جهة فِعلِ العَبدِ؛ تَبَيَّنَ لك معنى الطاغوت؛ أي لمَّا نقول: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، هذا يعود إلى فِعلِ الفاعل وليس إلى المعبود من دون الله، يعني نقول: أنت الآن لما جاء هذا الإنسان وعَبَدَ المسيح -عليه السلام- هل نقول: المسيح طاغوت؟ لا، ما هو الطاغوت؟ فِعلُك هذا هو الطاغوت، الفعلُ هذا هو الطَّاغوت، لكن إذا رَضِيَ الإنسانُ أن يُعبَدَ من دون الله أو يُسَوَّى بالله، ماذا نقول؟ نقول: هو طاغوتٌ بالفعل والرضا، فما يُعبَدُ من دون الله على قِسمين: إمَّا أن يكون راضيًا أو غيرَ راضٍ أو ليس له إرادة أصلاً، فالذي ليس له إرادة أصلاً أو غير راضٍ هذا عبادة طاغوت، معناها ماذا؟ معناها راجع إلى الفعل ليس راجعًا إلى المعبود، فإن كان راضيًا فهو راجعٌ للفعل وللمعبود معـًا.

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ هنا "أن" تفسيرية، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً﴾، هذا الرسول ماذا يصنع؟ ماذا يقول لقومه؟ ما الذي يدعو قومه إليه؟ يقول لهم: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فدلت هذه الآية على ما ذكرناه من المقصد وهو اجتماع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- على الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك، هذا أولاً.

ثانيًا: فيه بيان معنى التوحيد؛ لأنه قال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، إذنْ: التوحيد ما هو؟ هو عبادة الله واجتناب عبادة الطاغوت.

وثالثها: وجوب التوحيد؛ لأنَّه أمرٌ، قال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، ففي حكم التوحيد، حكم التوحيد لو سألك واحد تقول: واجب، الدليل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، الرسل اجتمعت على التوحيد، وما الدليل؟ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، طبعًا لمَّا نقول: اجتمعت الرسل الذي هو الدين الذي على أصل الدِّينِ المَذكور في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وهو الذي ذَكَره الله في قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، هنا ليس الإسلام الخاص الذي بُعِثَ به النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن يُراد به الاستسلام لله بالتوحيد، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾، هو الذي ذَكَره الله في الآية التي قبلها: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٨]، هذا هو الإسلام،

الاستسلام لله -عز وجل- والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك والبراءة من أهله، هذا هو الدين عند الله الإسلام، وهذا هو الذي اجتمع عليه الرسل، لكن الشرائع قد يتفقون في بعضها وقد يختلفون، وقد يتفقون في أصلها وكيفيتها، وقد يختلفون حتى في كيفيتها ويتفقون في أصلها، باب الشرائع باب آخر، لكن أصل الدين الذي هو التوحيد، لا خلاف فيه، لماذا؟ لأنَّ الدين خبرٌ، الخبر المحض لا يدخله نَسْخٌ؛ لأنَّ النسخ تكذيب لما سبق، والله -عز وجل- أخبر عن نفسه، هذا إخبار الله عن نفسه وعن عبادته، ولا يدخل فيه نسخ، ولهذا...

الشرائع تُنسَخ ولكنَّ التوحيد لا يُنسَخ، وهو الذي اجتمعت عليه الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

الآية الثالثة: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، هذه الآية أوجب الله -عز وجل- وألزم وأوصى الخلْق أن لا يعبدوا إلا الله، فقال: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾؛ أي إلا الله، فهذا هو معنى لا إله إلا الله؛ لأنَّ قوله: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا﴾ معناها لا إله، وقوله: ﴿إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ معناها: إلا الله، فهذه الآية فيها معنى لا إله إلا الله، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾، إذنْ: هي فيها بيان معنى التوحيد، ما هو التوحيد؟ هو أن لا يُعبَدَ إلا الله، هذا التوحيد، هذا معنى التوحيد.

ثانيًا: فيها حكم التوحيد وهو الوجوب؛ لأنَّه قال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾.

والآية الرابعة وهي قول الله -عز وجل-: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى...﴾ الآية [النساء: ٣٦]، هي وصايا عشر بدأها بقوله:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، إذن: التوحيد ما هو؟ هو عبادة الله ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾.

ثانيًا: أن فيها وجوب التوحيد؛ لأنَّه أمر ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾، والأمر يقتضي الوجوب.

الثالث: أن الله جمع في بيان التوحيد هنا -لو تلاحظون- هذه مماثلة لآية "النحل" ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، هنا قال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، فأمر بالتوحيد ونهى عن الشرك، هذا دليل على أنه لا يجتمع توحيد وشرك، الآية ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾، نهى عن الشرك وأمر بالتوحيد.

وقوله تعالى ثم الآية الأخرى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١]، لما ذكر الوصية في سورة "الأنعام" ابتدأها بقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، هذه الآية كما في أثر ابن مسعود الذي بَعدَه، ومن أراد أن ينظر إلى وصية إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- التي عليها خاتمه، فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

كتاب التوحيد

للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب

المجلس الثاني

فضيلة الشيخ/ عبد العزيز بن محمد السعيد

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كُنا قد انتهينا إلى قول الله -عز وجل- في الباب الأول أو في كتاب التوحيد إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا... ﴾ الآيات [الأنعام: ١٥١]، وهذه الآيات في المُحرَّمات جاء المؤلف بَعدَها بحديث ابن مسعود -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمدٍ صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتَمه فليقرأ هذه الآيات».

والمقصود من ذلك أن هذه الآيات مما بيَّن النبي -صلى الله عليه وسلم- وأوصى بها كما أوصى الله -عز وجل- بها؛ لأنَّ ما أمر الله به نبيه -صلى الله عليه وسلم- فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- تَتْبَعُه أُمَّتُه في ذلك، فهذه الآيات كأنها وصيةُ النبي -صلى الله عليه وسلم- التي ختمها بخاتَمه؛ لأنه -عليه الصلاة والسلام- كان له خاتم عليه اسمه يختم به الكتب، فكأنَّ هذه الوصيةَ قد ختم النبي -صلى الله عليه وسلم- عليها بهذا الخاتم؛ لأهميتها وعِظَم شأنها، وهذه الآيات بدأها الله -عز وجل- بقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، فذكر الله -عز وجل- أول المحرمات وهو أغلظها وأشدها وهو الشرك، فالشرك من المحرمات والمحرمات تتفاوت في الكبر، وأكبر الكبائر كما ثبت في الحديث «أكبر الكبائر الإشراك بالله تعالى»، قد ذكره الله -عز وجل- في هذه الآية في مبتدئها، فقال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾؛ أي: هَلُمُّوا أتلو ما حرم الله عليكم ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، فدل ذلك على أن الشرك بالله -عز وجل- مُحَرَّم، وكونه محرمًا لا يعني أنه لا يكون شركًا؛ لأن الشرك هو أكبر المُحَرَّمات.

والثاني: أنه قال: ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، فنهى الله -عز وجل- عن الإشراك به، أيَّ شيءٍ كان هذا الإشراكُ؟ قليلاً أو كثيرًا، صغيراً أو كبيراً، كله مُحرَّمٌ؛ لأنه قال: ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، فعَمَّ ذلك الشِّركَ كُلَّه صغيرَه وكبيرَه.

ومناسبة هذه الآية وأن هذه الآية دالة على وجوب التوحيد؛ لأنه لمَّا حَرَّم -عز وجل- الشرك دَلَّ بمفهومه على وجوب التوحيد الله -عز وجل- وهذا ظاهر، ثم ذكر حديث معاذ بن جبل: كُنْت رَدِيفَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ لِي: «يا مَعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَاد، ومَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟»، هذان حقان: حق الله على العباد، وحق العباد على الله.

أما حق الله على العباد فهو واجب؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وأما حق العباد على الله فهو حقُّ تَفَضُّلٍ وإحسان أَوْجَبه الله -عز وجل- على نفسه، والله -عز وجل- لا يُخْلِف الميعاد، هذان الحَقَّان لمَّا سأل النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- عنهما معاذًا، قال معاذ: "اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ"، والحُكم إذا كان متعلقًا بأمر شرعي، فيقال: الله ورسوله أعلم، أما ما كان متعلقًا بأمر كوني، فالذي يَعلَمُه هو الله وَحدَه لا شريك له.

قَالَ: «فإن حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، وقلنا: إن حق الله على عباده حقُّ وجوبٍ، إذنْ فالتوحيد واجب، فالتوحيد حق لله على عباده وهذا الحق حق واجب لله -عز وجل-، بيَّن هذا الحق في قوله: «أَنْ يَعْبُدوهُ وَلَا يُشْرِكوا به شَيْئًا»، فدل ذلك على أن التوحيد حق واجب، وأنه يجب في هذا التوحيد أن يَجمع العبد بين عبادة الله -عز وجل- وتَركِ الإشراك به -سبحانه وتعالى-، وهو بيان لمعنى التوحيد كما تقدم في مَقصِد المؤلف -رحمه الله- من هذا الكتاب.

قال: «وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِك به شَيْئًا»، هذا الحق حق تفضل، فدل على أن من لا يشرك بالله شيئًا لا يعذبه الله، ولكن المراد هنا العذاب الذي يتعلق بعذاب الخلود في نار جهنم الذي أوجبه الله -عز وجل- على الكفار، وأما ما يَمَسُّ بعض العصاة من هذه الأمة مِن عذاب على أعمالٍ عَمِلُوها، فهذا ليس عذابَ خلودٍ، وإنما عذاب يعقبه الخلود في الجنة.

{بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهمَّ اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين.

قال الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى-:

(باب فَضْلُ التَّوْحِيد وَمَا يُكَفِّرَ مِنَ الذُّنوبِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢].

عَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَروحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ؛ أَدَخلهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ». أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ».

وَعَن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ رَسُول اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ! عَلِّمْنِي شَيْئاً أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ. قَالَ: قُلْ يا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: يَا رَبِّ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا. قَالَ: يا مُوسَى! لَوْ أَنَّ السَّمواتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، والْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، ولَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». رَوَاهُ ابْنُ حِبَّان، وَالْحاكَمْ وَصَحَّحَهُ.

وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يا ابْنَ آدَمَ! لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا؛ لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»)}.

باب فضل التوحيد وما يكفره من الذنوب، لما انتهى المؤلف من بيان الحكمة من التوحيد ووجوه التوحيد ومعنى التوحيد، بيَّن فضل هذا التوحيد والذي تقدَّم.

قال: (بَابُ فَضْلُ التَّوْحِيد)، والفضل هو الزيادة، يراد به فضل التوحيد؛ أي فضل التوحيد أو الفضل يُراد به ما رَتَّبَه الله -عز وجل- على التوحيد من أجر وثواب، ولا شك أنَّ ما ذكره الله -عز وجل- من فضل التوحيد يَفوق ما ذكره عن سائر القُرَبِ الأخرى؛ لأنَّ التوحيد هو أساس الدِّين والمِلة.

ثم قال: (وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنوبِ) وهذا من باب عطف الخاص على العام؛ لأنَّ من فضل التوحيد أنه يكفر الذنوب، لكنه ذكر هنا وما يُكفِّر من الذنوب؛ لأن تكفير التوحيد للذنوب ليس كمِثلِ تكفير سائر الأعمال للذنوب.

فمثلاً: السيئات التي يعملها الإنسان تكفرها الحسنات، لكن ما هي السيئات التي تكفرها الحسنات؟ هي صغائر الأعمال، وأما كبائر الأعمال فلا يُكفِّرها إلا التوبةُ، وأما التوحيد فيكفر حتى الإشراك بالله -عز وجل-، حتى الشرك يُكفِّره الله -عز وجل- بالتوحيد، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، والتوحيد... وهذه الآية جاءت في الإشراك وفي غيره، التوحيد [يُكفِّر] حتى الإشراك بالله -عز وجل-، فمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وكان مشركًا؛ غفر الله -عز وجل- له ما تقدم من ذنوبه بدخوله في الإسلام، وهذا مِن فضائل التوحيد.

ذَكَرَ المؤلف قول الله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، هذه الآية جاءت بعد مُحاجَّة إبراهيم لقومه التي ذكرها الله -عز وجل- في سورة "الأنعام"، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]، ثم ذكر الله تعالى المحاجة إلى أن قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]، ثم قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، هذا جواب لقوله: ﴿فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فالذين هم أحق بالأمن هم أهل التوحيد، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾؛ أي: لم يلبسوا أو لم يَخلِطُوا إيمانهم بشرك بالله -عز وجل-، كما ذَكَرَ الله عن المشركين أنهم كانوا كذلك، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، فهؤلاء لا ينفعهم إيمانهم، ولكن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾؛ أي: لم يخلطوه بشرك، هؤلاء ﴿لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

وقد ثبت في الصحيحين أن هذه الآية لمَّا نزلت؛ شَقَّ ذلك على أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقالوا: وأي بني آدم يَظلم نفسه؟ لأنهم ظنوا أن الظلم على عمومه يشمل جميع السيئات، فلما ذكروا ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم-، بيَّن لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أن المراد به الشرك بالله، وتلا قوله تعالى في قصة "لقمان": ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، إذنْ فقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾؛ أي: بشرك.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، يعني أولئك لهم الأمن في الدنيا والآخرة، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

وقال تعالى في شأن المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]؛ أي: مبعدون عن النار، ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا

اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لاَ يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٣]، وهذا دليل على أنهم آمنون، وهذا هو الأمن يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة. والاهتداء في الدنيا هو الاستمساك بالصراط المستقيم، وفي الآخرة هو دخول جنات النعيم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

فهذه الآيات بيَّنت فضل التوحيد، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، فأهل التوحيد لهم الأمن والاهتداء على قسمين:

القسم الأول: أمن تام واهتداء تام، وهذا لمن حقق التوحيد، تامًا كاملاً.

القسم الثاني: يكون دون ذلك، وهو من أتى بالتوحيد، لكنه فعل أو أتى بما يَنقُص كمالَ التوحيد الواجب، لكن أصل التوحيد معه، فهذا له أمن واهتداء بحَسَبِ توحيده وإيمانه، لكن أهل التوحيد جميعًا، سواءً من كان توحيده تامًا أو أصابه شيئًا من الخلل لكنه لم يشرك بالله -عز وجل-، فهؤلاء لهم الأمن، سواءً كان الأمن تامًا أو دون ذلك؛ لأنَّ أهل التوحيد منهم من يدخل الجنة مباشرة، ومنهم من يدخل الجنة بعد أن يُصيبه شيء من العذاب، وهم أهل الكبائر من هذه الأمة لمن شاء الله -عز وجل- أن يُعذبه يوم القيامة.

ثم جاء بحديث عُبادَة بن الصامت، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَروحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»، هذا الحديث فيه شرط وجزاء، قال: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهُ..» إلى آخره، ثم جاء بجزائه وهو: «أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»، وهذا الحديث متعلق بالتوحيد؛ لأنَّ مَن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأن عيسى عبد الله ورسوله، ففي محمد قال: وأن محمدًا عبده ورسوله، وفي عيسى قال: وأن عيسى عبد الله ورسوله، وهذا دليل على أن الأنبياء لا تجوز عبادتهم وإنما هم عباد لله، فهم عباد لله لا يُعبَدون ولكنهم يُتَّبَعُون -صلوات الله وسلامه عليهم-.

فقوله: «عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» جمع الله -عز وجل- لهم ما بين صفتين: الدَّلالة على أن عيسى لا يعبد، كما أن محمد -صلى الله عليه وسلم- لا يعبد، وفيه: دَلالة على أن الذين غَلَوْا في النبي -صلى الله عليه وسلم- فسألوه ما هو من حق الله -عز وجل- من دعاء واستغاثة ونحو ذاك، أن هؤلاء لم يأتوا بهذه الشهادة، وأنَّ

مِثْلَهم مِثْلُ من عبد المسيح عيسى ابن مريم، ولهذا ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «لا تُطروني، كَما أطرَتِ النَّصارَى عيسَى ابنَ مريمَ، فإنَّما أنا عبدٌ، فَقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُهُ».

إذنْ: الشهادة للنبي -صلى الله عليه وسلم- بأن هو عبد لله، والشهادة بأنه رسول الله، لا بد أن تعتقد أنه عبد لله، والعبد لا يُعبَد، وتعتقد أنه رسول الله، والرَّسول يُصدَّقُ ويُتَّبَعُ، فمن لم يأتِ بهاتين فإنه لم يشهد أن محمدًا رسول الله.

قال: «وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَروحٌ مِنْهُ»؛ لأنَّ عيسى -عليه السلام- خَلَقَه الله -عز وجل- من أم بغير أب، والناس منهم من خُلق غير أب ولا أم وهو آدم، ومنهم من خُلق من أب دون أم وهي حوَّاء، ومنهم من خُلق من أم دون أب وهو عيسى وبقيَّتهم خُلقوا من أب وأم، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى﴾ [الحجرات: ١٣].

«وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَروحٌ مِنْهُ»؛ لأنَّ الله -عز وجل- أمَر الملك فنفخ في دِرعها وهو ثوبها فحَمَلَتْ، فجاءت بعيسى -عليه السلام-، «وَروحٌ مِنْهُ»؛ أي: ابتداء هذا الروح من عند الله -عز وجل-، وليس المراد بذلك أنَّ روحَ الله -عز وجل- حَلَّتْ في عيسى ابن مريم كما تقوله النصارى -تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيراً-، ولكن المراد به أن هذه الروح مُبْتَدَؤُها من الله -عز وجل-، روح منه؛ أي: إنه روح من الأرواح التي خلقها الله -عز وجل-، كما قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، فخلق السموات والأرض من الله -عز وجل- ليس من غيره، وعيسى ابن مريم روح خلقها الله -عز وجل- من الأرواح، وما في هذا الحديث وقد ذكره الله -عز وجل- في أواخر سورة "النساء": ﴿إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

«وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ»، المقصود بذلك الإيمان باليوم الآخِر، ومنه أن الجنة حق والنار حق، بمعنى أنه لا يُشَكُّ في وجود الجنة ولا النار وفي مآل العباد إلى إحداهما؛ لأنَّ الله قال: ﴿فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، فالناس يوم القيامة إلى الجنة أو إلى النار، وهذا معنى قوله: «وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ»؛ أي: الجنة حق والنار حق في وجودهما، وفي كونهما جزاءً لأهل الثواب وأهل العقاب.

قال: «أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»، من شَهِدَ بهذه الأشياء أدخله الله الجنة على ما كان من العمل، ومعنى ذلك أنَّ من دخل في التوحيد وآمن بالله ثم مات، فهو إما أن يموت على معصية وإما أن يموت على غير معصية، إذا مات على معصية فأمره إلى الله، إن شاء عَذَّبَه وأدخله الجنة وإن شاء أدخله الجنة بلا

عذاب، تَفَضُّلًا منه ومِنَّةً، وهذا واقع؛ لأنَّ الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]، فبعض هذه الأمة من أهل المعصية سيعذبهم الله، ثم يدخلهم الجنة، وبعض هذه الأمة سيعفو الله -عز وجل- عنهم، ويدخلهم الجنة من غير أن يصيبهم شيء من العذاب مع أنهم ماتوا وهم على معصية لله -عز وجل-، ولكن هذا فضل الله -عز وجل-، وأما من مات على الشرك فإن الله -عز وجل- لا يَغفر له.

فقوله: «أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»، ليس يدخل فيه المشرك بالله، وإنما هذا خاص بأهل التوحيد؛ لأنَّ الحديث في أهل التوحيد والشرط الذي ذكره الله -عز وجل- هو متعلق بأهل التوحيد.

فعلى ما كان من العمل: يعني إن مات طائعًا غير عاص لله، دخل الجنة، وإن مات عاصيًا لله دخل الجنة، سواءً أصابه شيء من العذاب أو لم يُصِبْه شيء من العذاب -كما تقدم-، لكن لا يعني هذا أن الإنسان يستمرئ المعصية أو يذهب إلى مذهب المرجئة الخبيث، فيُصِر على الذنوب والسيئات ويقول: يغفر الله لي!

أولاً: عذاب الله عظيم، وهذه النار التي في الدنيا [جزء واحد من سبعين جزءا من حر جهنم]، يعني نار الآخرة أضعاف مضاعفة لهذه النار، وهذه النار لو طلب منك أن تدخل أصبعك فيها لحظة يسيرة، ما استطعت، فكيف بعذاب الآخرة الذي هو أشد وأنكى؟!

وثانيا: أنَّ استمراء المعصية قد يُؤدِّي إلى الاستهانة بها، ثم إلى موت القلب، وربما جرَّت المعصيةُ غيرَها، ثم جَرَّتِ الإنسان إلى ما هو أكبر من ذلك وهو الانخلاع من رِبْقَةِ الإسلام؛ لأنَّ الذنوبَ والمعاصيَ يُنادي بعضُها بعضًا، كما أن الطاعات ينادي بعضها بعضًا، فلا يَغتَرَّ الإنسان بفضل الله ورحمته ويتكل عليها، فإن الذي أنزل آيات الرجاء هو الذي أنزل آيات الخوف والتهديد والعقاب، فيوازن الإنسان بينها.

الشاهد من الحديث هو قوله: «أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» وهذا دليل على فضل التوحيد، لكن ينبغي التنبيه على أن قوله: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ... » إلى آخره، ليس معناه: من شهد قال: أشهد، لا، ليس المراد هذا، وأن المراد بالشهادة «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ليس المراد النطق، إنما يُراد بها النطق، والعلم، والعمل، ثلاثة أشياء؛ لأنَّ الشهادة لا تكون إلا عن علم، كما قال الله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف: ٨١]، فالشهادة لا تكون إلا عن عِلم، يعني يعلم أن الله -عز وجل- لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله إلى آخر الحديث، يعلم علمًا يقينيًا ويقطع بذلك ولا يرتاب فيه، هذا هو العلم، وينطق بذلك، يشهد ذلك ويأتي بمقتضى هذه الشهادة،

فالذي يقول مثلاً: أشهد أن لا إله إلا الله، ويستغيث بغير الله أو يدعو غير الله، أو يذبح لغير الله، أو يصلي لغير الله، هذا لم يأتِ بالشهادة، لماذا؟ لأنه جاء في الأحاديث تقييدُها بالكفر بما يُعبَد من دون الله، بل في القرآن ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، العروة الوثقى هي كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، فالشرط فيها مُرَكَّب من شيئين: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ يعني يقول لا إله، ﴿وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ هو معنى إلا الله، فإذا لم يكفر بالطاغوت فمعناه لم يأتِ بجزء الشهادة الأول، لم يقل: لا إله، وإنما قال: الله معبود، صحيح الله معبود لكن غيره ليس بمعبود، لا يبينه إلا "لا إله"، والعلماء بيَّنوا أن جزاء الشرط لا يتحقق إلا بالإتيان بالمشروط، فالمشروط شيئان: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾، إذا لم يكفر بالطاغوت، لم يستمسك بالعروة الوثقى، معناه لم يكن مُوحِّدًا.

الشاهد: أن هذا الحديث له قيود، شهادة أن لا إله إلا الله لها قيود دلت عليها الأحاديث الأخرى وسيذكر المؤلف بعضها -إن شاء الله تعالى-.

ثم قال: (وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»)، هذا الشاهد فيه لفضل التوحيد: أن فضل التوحيد يكون مانعاً من الدخول في النار؛ لأنَّ الله يَمنع أن يُخَلَّدَ صاحبُ التوحيد في النار، فالله -عز وجل- حرم على النار من قال: لا إله إلا الله؛ أي: إن من قال: لا إله إلا الله فإنَّ اللهَ -عز وجل- قد حرم عليه الخلود في نار الكفار، لكن «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» مشروط بشرط، قال: «يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ» وهو الإخلاص، بمعنى أنه يقول: لا إله إلا الله مُخلِصاً لله -عز وجل- في مقالته هذه، لكن لو قال: لا إله إلا الله يريد بها مصلحة من مصالح الدنيا، أو يريد أن يَكُفَّ عن نفْسه العذاب، أو يريد أن يُظهر الإيمان لأهل الإيمان كما يصنع المنافقون، فهذا لا تنفعه لا إله إلا الله، تنفع من قالها خالصاً من قلبه، أما إذا لم يَقُلْها، وإنما قالها لأمر ما غير الإخلاص لله -عز وجل-، فإن هذه الكلمة لا تنفعه في الآخرة وإنْ نَفَعَتْه في الدنيا؛ لأنه من قال: لا إله إلا الله؛ وَجَبَ الكف عن قتاله، «أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فإذا فعلوا ذلك؛ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»، فإذا قالها أيُّ إنسان؛ وجب الكف عنه، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لأسامة بن زيد لما قتل رجلاً قال: لا إله إلا الله، حين علاه بالسيف، قال: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ؟»، فأنكر عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- فِعْلَه؛ لأنه إذا قال: لا إله إلا الله؛ وجب الكف عنه، وأمْره وسريرته إلى الله -عز وجل-، لكن إذا كان قالها من أجل اتِّقاء السيف، أو من أجل مصلحة من الدنيا، فهي وإن نفعته في الدنيا، لكن لا تنفعه في الآخرة، يكون في الدَّرْك الأسفل من النار، وأما إذا قال: لا إله إلا الله مُخلِصاً من قلبه قاصداً بها وجه الله؛ فإنها تنفعه في الدنيا والآخرة؛ فإنَّ هذه الكلمة

تنفعه في الدنيا والآخرة وهي المنجية له من عذاب الله، وهي المراد من هذا الحديث؛ لأنه لا توحيدَ إلا بإخلاص، ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١١ - ١٢]، ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

ثم ذكر حديث أبي سعيد الخُدري -رضي الله عنه-: («قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ! عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ. قَالَ: قُلْ يا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: يَا رَبِّ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا. قَالَ: يا مُوسَى! لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، والْأَرْضينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، ولَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه فِي كِفَّةٍ؛ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»).

هذا الحديث يدل على أن فضل كلمة التوحيد ليس خاصـًا بهذه الأمة، بل هو لجميع الأمم، وهذا من فضائلها، أنها ليست مختصة بهذه الأمة، بل هي لجميع الأمم.

والثانية: أن هذه الكلمة فضلها ظاهر من قوله: «لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، ولَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، لو أنَّ السموات السبع وعامرهن غير الله؛ لأنَّ الله -سبحانه وتعالى- في العلو في السماء، ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦]، فالله في السماء، قال: «لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي»، فاستثنى -جل وعلا- نفسه، فيدخل في ذلك مَن في السموات مما يعلمه الله، ومما أَطْلَعَ عليه البشرَ ومما لم يُطْلِعْ عليه البشرَ من الملائكة وغيرهم، «لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، والْأَرْضينَ السَّبْعَ» بما فيها من المخلوقات، يعني السماوات السبع والأرضين السبع بما فيها من المخلوقات في كِفَّة، ووُضعت في كفة ووضعت هذه الكلمة لا إله إلا الله في كفة؛ مالت بهن لا إله إلا الله؛ أي: رجحت لا إله إلا الله، بالسموات والأرضين وما فيها من المخلوقات، وهذا دليل على ثِقَل هذه الكلمة في الميزان، يعني أن هذه الكلمة لها ثقل في الميزان يوم القيامة، وهذا يدل على أن العبد مهما عَمِلَ من السَّيِّئات ما لم يكن شِركًا، فهو من أَهلِ الرَّجاء.

ولهذا يقول العلماء في مذهب أهل السُّنَّة والجماعة: يرجون للمحسن ويخافون على المسيء، المحسن يعني من أهل الإسلام يرجون له ويخافون على المسيء، يخافون لكنهم لا يقطعون له بالنار، لماذا؟ لأن هناك في الأحاديث والنصوص ما يقتضي أن العبد قد يعافيه الله -عز وجل- ويغفر له ويعفو عنه وتَثْقُل حسناته على سيئاته، وأحيانًا قد يكون للإنسان سيئات كثيرة ولكن يفعل حَسَنَة إما أن يكون كان له فيها إخلاص شديد، أو كانت هذه الحسنة في ظرف معين، أو نحو ذلك أو كانت هذه الكلمةُ فاضلةً، لها فضلٌ عند الله، فترجع هذه

القُرْبَةُ على السيئات التي فعلها، لكن هذا لا يكون ولا يُعلَم إلا يومَ يَفصِل الله -عز وجل- بين الخلائق يوم القيامة.

والحديث الآخر والحديث القدسي: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يا ابْنَ آدَمَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا؛ لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِها مَغْفِرَةً»، القُراب -بضم القاف على الأفصح الأشهر- هو مأخوذ من القُرْب من الأرض، إذا قال: بِقُرَابِ الْأَرْضِ كأنه يقول: بقراب الأرض؛ أي: بقُرْب حَجم الأرض بما يُماثل الأرض، وبما يقارب الأرض، يعني «لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا»، يعني جئت بالخطايا بشيء عظيم يقترب أن يكون ملء الأرض، «ثم لقيتني» هذا هو الشرط، «لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا» لا قليلاً ولا كثيرًا، لا صغيراً ولا كبيراً، «لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِها مَغْفِرَةً»، لأتيتك بقراب الأرض مغفرة، وهذا يدل على فضل هذه الكلمة، لماذا؟ لأن قول هذه الكلمة وعدم الإشراك لله -عز وجل- يُرَجِّحُ جانب الحسنات على جانب السيئات، بمعنى أن الإنسان تكون له حسنات وله سيئات، لكن يكون له توحيد هو فيه مُخلِص، ولم يُشركْ بالله -عز وجل- شيئًا، فترجح حسناته على سيئاته بفضل هذه الكلمة العظيمة، كلمة التوحيد.

فدَلَّ ذلك، فهذا التبويب باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، دل ذلك على أن هذا التوحيدَ العظيمَ يُكفِّرُ الذُّنوبَ صغائرَها وكبائرَها.

{(بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّة بِغَيْرِ حِسَابٍ.

وَقَوْلِ اللَّه تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

عَنْ حُصَيْنِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَديثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنا عَنْ بُرَيْدَةَ بنِ الْحَصيبِ أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ. قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ. وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوادٌ عَظيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُم أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذا سَوادٌ عَظيمٌ، فَقِيلَ لِيَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُم سَبْعونَ أَلفًا يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ. فَخاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُم: فَلَعَلَّهُم الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وقَالَ بَعْضُهُم: فَلَعَلَّهُم الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا باللَّهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِم رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَخْبَرُوهُ، فقَالَ: «هُم الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوونَ، وَلَا يَتَطَيَّرونَ، وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُم. قَالَ: «أَنْتَ مِنْهُم» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُم. فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِها عُكَّاشَةُ»)}.

قال المؤلف -رحمه الله-: (بَابٌ: مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ)، أو: بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ كلاهما جائز على القطع والإضافة.

بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، الباب السابق: باب فضل التوحيد وما يكفره من الذنوب، وهذا عام للأمة، وأما هذا الباب فهو خاص بطائفة من هذه الأمة، ليس عامًا وإنما هو في طائفة من هذه الأمة، قال: (بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ)، ما معنى حقق التوحيد؟

تحقيق الشيء هو إحكامه، هو إحكام الشيء، فإذا أحكم الإنسان شيئًا فقد حَقَّقَه، ومعنى ذلك من حقق التوحيد؛ أي: أحكم هذا التوحيد وأثبته، وخلَّصه من شوائب الشرك، والبدع، والمعاصي، فلم يكن هناك شيءٌ يُبْطِلُه ولا يقدح فيه، بل أتى فيه بأصله وبكماله الواجب وبكماله المستحب، وقبل بيان الباب نبين لكم هذه الأشياء؛ لأنها ستمر كثيرًا.

عندنا باب التوحيد، فيه تحقيق أصل التوحيد، وهو الأصل الذي يدخل به الإنسان في الإسلام، بحيث لا يكون عنده ما يناقض هذا الأصل من الشرك الأكبر، هذا يكون أتى بأصل التوحيد، وهذا يُعتَبر من المُوحِّدين، وفيه تمام التوحيد ويُسمَّى الكمال الواجب، بمعنى أنه وإن كان مُوحِّدًا إلا أنه قد ترك شيئًا من الواجبات، أو أتى شيئًا مما يقدح في التوحيد، لكنه ليس من الشرك الأكبر، يعني يأتي بقادح، ولكن لا يُخْرِجُه هذا القادح من الإسلام؛ مثل الحلف بغير الله إذا لم يكن معظمًا للمخلوق كتعظيم الله، أو مثل قول: ما شاء الله وما شئت، أو: لولا الله ثم فلان، أو نحو ذلك، هذه تقدح في التوحيد، في كمال التوحيد الواجب، بمعنى أنك أخللت بشيء من التوحيد، لكن لا يكون الإنسان به مشركًا، فهذا الكمال الواجب بمعنى هو الكمال الذي يجب على الإنسان أن يأتي به في التوحيد ليكون توحيده كاملاً.

ثم يأتي بعد ذلك الكمال المستحب، بمعنى أنه يُستحَب للإنسان أن يكمل أو الأشياء التي يكمل بها الإنسان التوحيد، وهي ترك المكروهات، وفعل المُستحبَّات وهذا هو الكمال، وهذه الأصناف -أصناف أهل الإيمان- ذَكَرَهم الله في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ

وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالظالم لنفسه هو الموحد العاصي، والمقتصد هو الطائع، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، هم الذين أتوا بالمستحبات وتركوا المكروهات، فكمال التوحيد الكامل التام هو في الطائفة الثالثة: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ثم دونها الطائفة الثانية: هم أتوا بالواجبات وتوحيدهم تام لم ينقص منه شيء، ثم يأتي الظالم لنفسه يشمل العاصي ويشمل من وقع أو من أتى بقادح في توحيده لكن لا يخرجه هذا القادح من الإسلام.

استشهد قال: (دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ)، يعني بغير حساب ما المراد بالحساب؟ الحساب مرادُه مما يكون في اليوم الآخر من سؤال الله -عز وجل- لعبده، وكل إنسان سيحاسب يوم القيامة، كما دل على ذلك كتاب الله، لكن نفي الحساب هنا (بِغَيْرِ حِسَابٍ) يراد به، لا يراد به نفي الحساب مطلقًا، وإنما يراد به أن الإنسان لا يحاسب محاسبة من يعذبه الله -عز وجل-، ولهذا عائشة -رضي الله عنها- لما قال الله -عز وجل-: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ [الانشقاق: ٨]، بيَّن النبي -صلى الله عليه وسلم- لها هذا الحساب، هذا الحساب النبي -صلى الله عليه وسلم- قال فيه: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ»، عائشة قالت على قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾، فذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: إنما «ذَلِكَ الْعَرْضُ»، وبيَّن النبي -صلى الله عليه وسلم- مُحاسبة الله لعبده المؤمن، وأن الله -عز وجل- يدني عبده ويجعل عليه كنفه حتى يستره من الناس، ثم يقرره بذنوبه، فيقول له: فعلت ذنب كذا وكذا، فيُقر، ثم يقول: فعلت ذنب كذا وكذا، فيقول الله -عز وجل-: «قد سَترتُها عليكَ في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لكَ اليومَ»، وهذا معنى قول الله -عز وجل-: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]، ولكن بيَّن النبي -صلى الله عليه وسلم- معناه أن المؤمن الذي يُنجيه الله -عز وجل- من الحساب أو كيفية حساب المؤمن أنه يعرض على الله -عز وجل- عرضًا كما في الحديث.

إذنْ: مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وفي بعض النسخ: ولا عذاب، وهو بعض روايات الحديث، حديث حصين بن عبد الرحمن الآتي.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، هذه الآية فيها أربع صفات لإبراهيم -عليه السلام-: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾؛ أي: إمامًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً﴾؛ أي: مطيعًا لله -عز وجل-؛ لأنَّ القنوت هو دوام الطاعة، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً﴾، الحنيف من الحنف، والحنف هو القصد إلى الخير، والجنف هو القصد

إلى الشر، يعني قاصداً التوحيد، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: لم يَخلِطْ توحيده، أو لم يكن من المشركين في توحيده لربه -عز وجل-؛ أي: لم يكن في طائفة المشركين فيما أشركوا فيه بالله -عز وجل-، وهذا نفيٌ لإشراكه، ونفيٌ لانضمامه إلى طائفة المشركين، فكأنه يُبرِّئُه من أن يكون مُشركًا أو مُواليًا للمشركين.

والآية التي بعدها: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾، هذا نفي للإشراك عنهم فقط، أما آية "النحل" ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: لم يكن مشركًا بفعله، ولم يكن من المشركين بموالاته للمشركين، يعني لم يكن في طائفتهم ومنضمًّا إليهم، بل كان مفارقًا لهم ومتبرئًا منهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وهذا فيه براءة من الشرك.

وفي الآية الأخرى ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤]، وهذا فيه براءة من الشرك وأهله.

هذه الأوصاف التي في إبراهيم، وهذه الآية التي ذكرها الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- في صفة إبراهيم، في بيان أن أهل التوحيد متفاضلون فيه، وأن إبراهيم -عليه السلام- قد حقَّق أعلى مقامات التوحيد، فأعلى مقامات التوحيد، إبراهيم قد أتى بأعلى مقامات التوحيد، ولهذا قال الله -عز وجل- لنبيه بعد ذلك: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، أن إبراهيم حقَّق أعلى مقامات التوحيد، توحيد الله -عز وجل-.

إذن إبراهيم، هذه الآية تدل على تحقيق التوحيد، على فضل تحقيق التوحيد، لكن قال: (مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ)، كيف نستدل بها والآية ليس فيها ذلك؟

نقول: الدليل قول الله -عز وجل- بعد ذلك: ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١]، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- هم حققوا أعلى مقامات التوحيد، فلذلك يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، يدخلها الأنبياء وهذه صفة للخليل -عليه السلام-، أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضًا باتباعه فيها، إذن إبراهيم ومحمد والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؛ لأنهم حققوا التوحيد، فمن حقق التوحيد كان مثلهم في دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب.

ثم ذكر المؤلف -رحمه الله- آية "المؤمنون": ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾، هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٥٩].

ثم قال الله تعالى بعدها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١]، وهذه صفة من يدخل الجنة بغير حساب، ومن صفتهم: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾، فهو قيد في كونهم سابقين إلى الخيرات، هذا قيْدٌ فيها، ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾، والسابقون إلى الخيرات المتقدمون فيها الدرجة العليا منهم، هم الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، كما ثبت في الصحيح أن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر هم هؤلاء، هم هؤلاء السبعون ألفًا الذين ذكروا في حديث حصين بن عبد الرحمن كما سيأتي -إن شاء الله-، وهم الذين حققوا التوحيد، ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾، فهو خبر وحُكم، الآية ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ هذا خبر وحكم أخبر الله عنهم أنهم بهذه الأفعال ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، ثم حكم قال: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾؛ أي: سابقون غيرَهم في إدراكها، في إدراك هذه الخيرات التي يسعون ويسارعون إليها.

ثم ذكر حديث حصين بن عبد الرحمن، (كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟) يعني تساقط، (فَقُلْتُ: أنا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ)، هذا ليبرأ نفسه حتى لا يظهر في صورة القائم لربه -عز وجل- في آخر الليل وهو لم يكن كذلك، (قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ)، والرواية (استرقيت) معناها طلبت الرقية من غيري، والرقية عبارة عن دعاء، أو ذِكْر، أو قرآن يُقرأ على الوجع، أو الألم مع النفخ عليه.

قال: (ارْتَقَيْتُ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَديثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ)، طبعًا هذا يدل على أن الإنسان لا ينبغي له أن يفعل فعلاً إلا أن يسأل عن حكمه في الشرع، (قَالَ وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنا عَنْ بُرَيْدَةَ بنِ الْحَصيبِ أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ)، يعني لا رقية أنفع إلا من عين أو حمة كما سيأتي -إن شاء الله- في باب الرقى.

(قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ)، يعني أنك قد أحسنت إلى حيث انتهيت إلى ما سمعت من خبر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولم يُثَرِّبْ عليه؛ لأنه استند إلى حديث عن النبي -عليه الصلاة

والسلام-، (ثم قال الشَّعْبِيُّ: وَلكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»، يعني أنَّ الأنبياء متفاوتون في الأتباع، منهم من يأتي معه الجماعة ومنهم من لم يتبعه إلا رجل أو رجلان، ومنهم من ليس معه أحد، يعني لم يتبع أحد مطلقًا، دعا إلى الله حتى مات ولم يتبعه أحد، وهذا دليل على أن الكثرة أو القلة ليست هي المعتبرة في الحق، وإنما الحق يعتبر بذاته وليس بالاتباع، ولهذا قال الله -عز وجل-: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩]، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

إذن الكثرة ليست دليلاً، ولو كانت دليلاً لكان هؤلاء الأنبياء الذين لم يكن معهم إلا الرجل والرجلان أو ليس معهم أحد، لكانوا هؤلاء ليسوا على حق، فهذا باطل، هم على حق، لكن الله -عز وجل- لم يكتب أن يهدى أحد إلى ما دعوا إليه.

«إِذْ رُفِعَ لِيَ سَوادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُم أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ»، وهذا دليل على كثرة أتباع موسى، لكن أتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- أكثر من أتباع موسى، قال: «فَنَظَرْتُ فَإِذا سَوادٌ عَظِيمٌ»؛ أي: سواد عظيم آخر، السواد هو جماعة الناس، وأتباعُ النبي -صلى الله عليه وسلم- سوادٌ عظيم، ولهذا هم كما ثبت في الحديث هم أكثر أهل الجنة، «فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُم سَبْعونَ أَلفاً يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ».

الشاهد في قولهم: «وَمَعَهُم سَبْعونَ أَلفاً يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»، هذا موضع الشاهد من الحديث مع ما سيأتي -إن شاء الله-، انتبهوا هذه طائفة من هذه الأمة وليست كل الأمة، الأمة المحققة للتوحيد داخلة في الباب السابق: باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، تدخل في ذلك الباب؛ لأنَّ فضل التوحيد هناك يشمل كل الموحِّدين على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم في هذا الفضل، لكن هنا طائفة من هذه الأمة وهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

ما صفة هؤلاء؟ لما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- هذه الطائفة، دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- في بيته، ولحرص الصحابة على الخير وإدراك الدرجات العلى، خاضوا، يعني صاروا يتحدثون، من هؤلاء السبعون ألفًا؟ ما صفتهم؟ هل هم أعيان معينة كما ذكر عن العشرة المبشرين بالجنة؟ أم هي أوصاف من حققها دخل الجنة؟ كلٌّ حاول أن يستنبط أو أن يستظهر من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- شيئًا، قال بعضهم

فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئًا؛ أي: لم يكونوا على الشرك، ثم أسلموا، وإنما وُلِدوا على الفطرة وكانوا على ذلك حتى توفاهم الله -عز وجل-، وذكروا أشياء من هذه الاستنباطات والاستظهارات، فخرج عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقونَ وَلَا يَكْتَوونَ وَلَا يَتَطَيَّرونَ وَعَلَى رَبِّهُم يَتوَكّلُونَ»، هذا السبعون ألفًا هذه صفتهم.

إذنْ: من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب، هذا هو الشاهد، «الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقونَ»، ما معنى لا يسترقون؟ أي: لا يطلبون الرقية من غيرهم لأنفسهم؛ لأنَّ الرقية إما أن ترقي نفسك، وهذا يفعله النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإما أن يرقيك غيرك بغير طلب منك، وهذا أيضًا لا يمنع من أن يكون الإنسان من السبعين ألفًا، أو أن يطلب الرقية غيرك لك، يعني إنسان يراك مريضـًا أو بك وجع، ثم يقول لأحد ارق فلانـًا، فهذا لا يسلب عن أن يدخل السبعين ألفًا، لكن الرابع هو الذي يطلب الرقية لنفسه، يعني يكون بالإنسان مرض، فيطلب من أحد أن يرقيه، فهذا إذا فعله لم يدخل في السبعين ألفًا، يعني يحرم من الدخول في السبعين ألفًا.

إذن من صفتهم أنهم: لَا يَسْتَرْقونَ، يعني لا يطلبون الرقية من غيرهم لأنفسهم.

والثاني: لَا يَكْتَوونَ، والكي معروف، يعني وضع الحديد المحماة على الجسد طلبـًا للشفاء، ولا يكتوون لأن الكي مكروه وإن كان جائزاً، وقد نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- أمته عنه نهي كراهية، قال: «وَلَا يَتَطَيَّرونَ»؛ أي: لا يتشاءمون بالطير ونحوه وسيأتي معنا الطيرة؛ لأنها تقدح في التوحيد، «وَعَلَى رَبِّهُم يَتَوَكّلُونَ»، فجمعوا أربع صفات.

الصفة الأولى: أنهم لا يسترقون.

والثانية: أنهم لا يكتوون ولا يتطيرون.

والرابعة: أنهم على الله يتوكلون.

فدل ذلك على أن الذين يدخلون الجنة أو هذا الحديث أورده المؤلف لبيان أن من حقق التوحيد، يعني أتى بكمال التوحيد، ومن ذلك أنه ترك المكروهات؛ لأنَّ الكي مكروه، فتركه توكلًا على الله -عز وجل-، فدخل في السبعين ألفًا -والله تعالى أعلم وأحكم- وصلى الله على نبينا محمد.

كتاب التوحيد

للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب

المجلس الثالث

فضيلة الشيخ/ عبد العزيز بن محمد السعيد

{بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

قال الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: (بَابٌ: الْخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ، وَقَوْلُ اللَّهِ تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً﴾ [النساء: ٤٨]، وقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وَفِي الحَديثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ»، فَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ: «الرِّيَاءُ».

وَعَن ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِداً دَخَلَ النَّارَ».

وَلِمُسْلِم عَنْ جابِرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ به شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»)}.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، وصلىٰ الله وسلم علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وأصحابه ومن اهتدىٰ بهداه.

قال الإمام -رحمه الله-: (بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ).

يعني باب الخوف من الوقوع في الشرك؛ أي إن الموحد وإن كان مخلصًا لله -عز وجل- إلا أنه يخاف علىٰ نفسه الوقوع في الشرك، سواءً كان هذا الشرك شركًا أصغر أو كان هذا الشرك شركًا أكبر، سواءً كان هذا الشرك خفيًا أم جليًا.

فقوله: (بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ)؛ أي باب الخوف من الوقوع في الشرك، ومقصود هذه الترجمة عند الإمام -رحمه الله-: أن الموحد كما يرجو الله -عز وجل- بتوحيده أن يُدخِله الجنة ويُنجيه من النار، فهو أيضًا يجمع إلىٰ ذلك الخوف من الوقوع في الشرك.

البابان السابقان لهذا: هما باب فضل التوحيد وما يكفره من الذنوب، والباب الذي يليه: باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب، هذان البابان متعلقان بالرجاء؛ أي إن الموحد يرجو فضل هذا التوحيد، ومن حقق التوحيد أيضًا يرجو فضل هذا التحقيق، لكنه أيضًا في المقابل يخاف أن يقع في الشرك بالله -عز وجل- وهو الذي عقد له المؤلف هذا الباب.

والأمر الثاني: يريد المؤلف أيضًا أن يبين به الرد علىٰ من زعم أن من أتىٰ بالشهادتين؛ فإنه لا يقع في الشرك، وسيأتي -إن شاء الله- باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان؛ أي إن بعض هذه الأمة يشرك بالله -عز وجل- وإن كان يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

إذن: فمقصود الترجمة -كما قلنا- أمران، الأول: أن المؤمن كما يرجو بتوحيد، أيضًا يخاف أن يقع في الإشراك بالله -عز وجل-.

الثانية: أن هذا الباب به الرد علىٰ من زعم أن من شهد أن لا إله إلا الله، أنه يكون موحدًا ولا يقع في الشرك بالله -عز وجل-.

قلنا: إن المقصود بالشرك، أن الشرك هنا يشمل الشرك بنوعيه الأكبر والأصغر، يشمل الشرك بنوعيه سواءً الأكبر أو الأصغر، وكذلك يشمل الجلي والخفي.

الشرك الأكبر هو صرف العبادة لغير الله أو تسوية غير الله -عز وجل- بالله في الاستحقاق أو التعظيم، يعني مَن عَظَّمَ مخلوقًا كتعظيم الله؛ فقد كفر، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥]، وهذا سيأتي -إن شاء الله-، ومن ساوىٰ غير الله بالله في الاستحقاق -أي باستحقاق العبادة- فقد أشرك بالله، وليس المقصود المساواة هنا أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، لكن المقصود منه صرف شيء من العبادة للمخلوق، إذا صرف شيئًا من العبادة للمخلوق، فقد ساوىٰ غير الله بالله -عز وجل- ويكون بذلك مشركًا، فالمسلم يخاف علىٰ نفسه الوقوع في الشرك لهذا كله.

ذكر المؤلف -رحمه الله- قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، وهذه الآية في موضعين من سورة "النساء"، الموضوع الأول ختمها الله -عز وجل- بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، وختمها في الثانية: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾[النساء: ١١٦].

أما الافتراء فهو الكذب الذي لا شبهة فيه، فقد افترىٰ علىٰ الله إثمًا عظيمًا، وقد ثبت في الصحيح أن أكبر الكبائر هو الإشراك بالله -عز وجل-، فلا شيء أكبر من الإشراك بالله -عز وجل-، وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، والتنكير للتعظيم؛ أي تعظيم هذا الإثم، وأنه قد بلغ من الكِبَرِ مبلغًا عظيمًا، وختم الآية الثانية: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾، وهذه اللفظة هي الضلال البعيد لم تَرِدْ في القرآن إلا في حق المشركين والكفار، كما في قول الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً﴾النساء: ١٦٧]، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ١٣٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَىٰ الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ٦٠].

والضلال البعيد وارد في أهل الكفر والنفاق والإشراك بالله -عز وجل-، ولم يوصف أهل الإسلام في كتاب الله بأنهم قد ضلوا ضلالًا بعيداً؛ لأن الضلال البعيد هو الذي لا حَدَّ له ولا نهاية له، قد يضل الإنسان لكن الضلال البعيد هذا هو غاية الضلال، ونهاية الضلال -نسأل الله العافية والسلامة-.

فالآية في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾، هذا خبر، والخبر في كلام الله -عز وجل- يجب تصديقه، فالله أخبر أنه لا يغفر الشرك به، وإذا عَلِمَ المؤمنُ أن الله لا يغفر الشرك به؛ خاف هذا الشرك الذي لا يغفره الله -جلَّ وعلا-؛ لأن أخبار الله -عز وجل- يُؤخذ منها الاعتبار والعظة، وهذا خبرُ صِدقٍ من الله -عز وجل- ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾.

إذن: فهذه الآية في دَلالتها علىٰ الباب: أن الله -عز وجل- أخبر أنه لا يغفر الشرك، وهذا يستوجب للمؤمن أن يكون حذرًا من الشرك، خائفًا من الوقوع فيه؛ لأن الله -عز وجل- لا يغفره، وكذلك في آخر الآيتين: ﴿فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا﴾، أيضًا هذا وصف لحال المشرك بالله -عز وجل- يوجب للمسلم أن يحذر الوقوع في هذا الشرك الذي وصف الله -عز وجل- حال فاعله بهذه الصفة.

والآية الثانية، وهي ما ذكره الله -عز وجل- عن الخليل -عليه السلام- ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾، وهذه الآية دعاء من إبراهيم -عليه السلام- لربه -عز وجل- أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، يعني

الإشراك بالله -عز وجل-، ودعاء إبراهيم -عليه السلام- جاء مشتملًا علىٰ أمرين: أحدهما الدعاء لنفسه، والثاني الدعاء لبنيه، فدل ذلك علىٰ أنه يشرع للإنسان أن يدعو لنفسه ولغيره بأن يجنبه الله -عز وجل- الشرك، وذكره الله -عز وجل- بلفظ الاجتناب: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾؛ لأن هذه اللفظة ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ دالَّة علىٰ التباعد أو طلب التباعد بينه وبين الشرك، أن يجعله الله -عز وجل- في جانب -أي في ناحية- والشرك في ناحية، ولم يقل: واترك الشرك، لكنه قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾؛ أي باعد بيني وبني باعد بيننا وبين الإشراك بالله -عز وجل-، كأنه في جانب والآخر في جانب آخر لا اتصال بينهم؛ لأن الإنسان قد يترك الشيء لكن يكون له به اتصال، لكن المجانبة هي مباعدة ومفارقة، وهذا معنىٰ ما قاله الله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦]، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾[الممتحنة: ٤]، والبراءة تقتضي المباعدة والمفاصلة والمجانبة.

إذن: فإبراهيم -عليه السلام- في هذه الآية فيما ذكره الله عنه في دعائه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾، وبنوه الذين هم من ذريته، أبناؤه الذين من صلبه هؤلاء لم يقع منهم إشراك بالله -عز وجل-، ومن هنا قال العلماء: استجاب الله له في بنيه الذين هم من صلبه، أما ذريته بعد ذلك فإن منهم من هداه الله -عز وجل- ومنهم من أشرك، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

وفي سورة "البقرة" قال الله -عز وجل-: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]؛ أي إن عهد الله -عز وجل- لا ينال أهل الإشراك بالله -عز وجل-، ولا يكون لهم عند الله عهد تحصل لهم به نجاة في الآخرة؛ لأن هذه الآية وهي آية "البقرة" هي دالة علىٰ أن طائفة من ذرية إبراهيم لا يكونون علىٰ التوحيد، وهذا الواقع فعلاً؛ لأن قريشًا كانوا من ذرية إبراهيم، من إسماعيل بن إبراهيم، وكان منهم المشركون وكان منهم الموحدون المسلمون.

إذن: فقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾، في ذريته استجاب الله له، يعني في بنيه الذين هم من صلبه، وفي غيرهم لم يستجب الله دعاءه، وليس هذا منقصة في إبراهيم -عليه السلام- ولا حَطًّا من قدره، ونبينا -صلىٰ الله عليه وسلم- أفضل من إبراهيم ومع ذلك قال: «سألتُ ربِّي ثلاثًا، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة»، وهذا من حِكمة الله -عز وجل-.

إذن: هذه الآية ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ فيها سؤال إبراهيم لربه -عز وجل- أن يجنبه وذريته عبادة الأصنام، هذه الآية لا بدَّ من ربطها بالباب السابق: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، فإبراهيم -عليه السلام- وصف بهذه الصفات، ونفىٰ الله عنه الشرك، وأثبت له التوحيد، وأثبت له دوام الطاعة، وأثبت له الإمامة في الدين، ومع ذلك يدعو هذا الدعاء: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾، فدل ذلك علىٰ أن إبراهيم -عليه السلام- كان يخاف الشرك بالله -عز وجل-، مع أنه إمام الحنفاء وأبو الأنبياء والمعصوم، إلا أنه دعا ربه بهذا الدعاء؛ لأنه خاف الوقوع في الشرك بالله -عز وجل- مع تمام توحيده وكماله.

إذن: قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾، هذه الآية دالة علىٰ ما عقد المؤلف الترجمة من أجله، وباب الخوف من الشرك، فإبراهيم -عليه السلام- خاف من الوقوع في الشرك مع كونه موحدًا، وإذا سأل ربه أن يجنبه الشرك، وغيره ممن هو دونه في مقام التوحيد أولىٰ بأن يكون خائفاً أو أولىٰ بأن يكون أشد خوفًا من إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-.

ثم ذكر الحديث: (وَفِي الحَدِيثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ»،) هذا الحديث خرَّجه الإمام أحمد -رحمه الله- في مسنده، وكذلك خرَّجه غيره، وهو حديث أورده المؤلف -رحمه الله- لأمرين:

الأمر الأول: أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قال: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ»، فالنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- خاف الشرك علىٰ هذه الأُمة، فإذا خافه عليهم وجب عليهم أن يخافوا الشرك؛ لأنه لو لم يكن المسلم مُعرَّضًا للوقوع في الشرك؛ لما خافه النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- علىٰ أهل التوحيد، فإذا خافه النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- علينا، وجب أن نخافه نحن علىٰ أنفسنا.

والثانية: أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- ذَكَرَ الشرك الأصغر، فدل ذلك علىٰ أن الخوف من الشرك ليس هو الخوف من الشرك الأكبر فقط، وإنما الخوف من الشرك الأصغر والشرك الأكبر، طبعًا الشرك الأكبر لا يغفره الله البتة، من مات علىٰ الشرك فهو مُخلَّدٌ في نار جهنم، ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، وهذا بإجماع أهل العلم والإيمان، أن من مات علىٰ الشرك بالله -عز وجل- فهو في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها، وهذا أمر مقطوع به ومحسوم ومن الأمور المجمع عليها ومن اليقينيات في دين الإسلام؛ لهذا لا يجوز للإنسان أن يشكك في كون المشركين في النار، إن شكك فهو كافرٌ بمحمد -صلىٰ الله عليه وسلم-؛ لأنه تتعالىٰ بعض الأصوات يقول لك: اليهود يمكن أن يكونوا في الجنة،

النصارىٰ يمكن أن يكونوا في الجنة، هذا كُفر ورِدة عن دين الله؛ لأن الله -عز وجل- أخبر أنهم في النار؛ لأنهم كفار ومشركون.

إذن: فالشرك الأكبر لا يَغفره الله، لكن الشرك الأصغر لا يخرج من الملة، ولكن الكلام في هل من مات علىٰ الشرك الأصغر واستوت حسناته وسيئاته، هل يدخل هذا في باب الموازنة الشرك الأصغر ولا يعذب في النار، ثم يخرج؟ يعني رجل استوت حسناته وسيئاته، أو الناس أقسام: قسم رجحت سيئاته علىٰ حسناته، وقسم رجحت حسناته علىٰ سيئاته، وقسم استوت سيئاته وحسناته وكان في السيئات شرك أصغر.

بعض العلماء ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية يقولون: إذا كان الأمر كذلك فلا تدخل الشرك الأصغر في موازنة، يعني لا يدخل في الترجيح.

إذن: هو لا بدَّ أن يعذب، وتلميذه ابن القيم علىٰ خلاف ذلك، يرىٰ أنه مثله مثل بقية الذنوب وإن كان أكبر منها إلا أنه يدخل في باب الموازنة.

الشاهد: أن الأمر خطير، يعني ليس الأمر بالأمر اليسير والسهل، ما بعده ليس مجرد كلام ولكن بعده هناك نار وهناك شرك، وعذاب الشرك الأصغر أشد من عذاب الكبائر.

إذن: الحديث هنا: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ»، فدل هذا علىٰ أن المؤمن يخاف الشرك كما خافه النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- علىٰ أمته، وثانيًا: أن باب الخوف من الشرك هنا أو الخوف من الشرك ليس هو متعلقًا بالشرك الأكبر فقط، إنما هو بالشرك الأصغر والأكبر؛ لأن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- إذا خاف علينا الشرك الأصغر، مع أنه لا يُحبِط سائر الأعمال، إلا أنه إذا كان يخاف علينا -عليه الصلاة والسلام- الشرك الأصغر فمن باب أولىٰ يخاف علينا الشرك الأكبر، وهذا من باب التنبيه بالأدنىٰ علىٰ الأعلىٰ، لكن ذكر الأصغر وفسَّره هنا بأنه الرياء لخفائه، لماذا؟ لأن الرياء نوعان: أكبر وأصغر، أما الأكبر فداخل في الشرك الأكبر، يعني إذا صلىٰ للناس فقط، هذا مشرك شركًا أكبرَ، لكن إذا صلىٰ لله، ثم دخل عليه في صلاته شيء من الرياء، حسَّن الصلاة لِما يَرىٰ من نَظرِ الناس، الصلاة هي لله، لكن هذا التحسين راعىٰ فيه المخلوقَ، فهذا هو الشرك الأصغر.

ثم ذكر حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قال: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِداً دَخَلَ النَّارَ»، والند ند الشيء هو نظيره ومماثله ومقابله هذا يسمىٰ الند، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾.

إذن: الند هو النظير، من مات وهو يدعو لله نِدًّا أي أنه يدعو غير الله -عز وجل- كدعائه لله -عز وجل-، فهو في النار، قال: «دَخَلَ النَّارَ»، ولا شك أن دخول النار مما يخوف الله -عز وجل- به عباده، فإذا علم المؤمن مآل المشرك وأنه دخول النار؛ كان ذلك سببًا في خوفه من الوقوع في الشرك، ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]؛ لأن الله قال قبلها: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، هؤلاء هم أهل الإشراك الذين اجتنبوا الإخلاص، ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ * لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١١ - ١٦].

إذن: فقوله: «دَخَلَ النَّارَ»، هذا تخويف من الله -عز وجل- لعباده، أو خبر من النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- بأنه يدخل النار، هذا الخبر يستوجب من المسلم أن يخاف سببه، وهذا السبب هو الإشراك بالله -عز وجل-، وهذا الدخول دخولٌ -فيما يظهر- دخولٌ لا خروج معه؛ لأنه مات وهو يدعو لله نِدًّا؛ أي مات علىٰ الشرك الأكبر، وهذا الحديث حديث ابن مسعود لما ذكر ابن مسعود هذا الحديث في الصحيحين: «من مات يشرك بالله شيئًا دخل النار»، هذا لفظ حديث النبي -عليه الصلاة والسلام- في الصحيحين.

قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "ومن مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة"، وهذا عند العلماء يُسمَّىٰ بقياس، بعض العلماء وليس كل العلماء، بعضهم يسميه بقياس العكس، فهنا ابن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- لما قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «من مات وهو يشرك بالله شيئًا دخل النار»، قال ابن مسعود استفاد منه: "ومن مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة"، طبعًا هذا الحديث جاء أيضًا بعده حديث جابر -رضي الله تعالىٰ عنه- في صحيح مسلم «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ به شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»، وهذا الحديث أخص من حديث ابن مسعود، هذا الحديث من حيث الشرك هو أعم من حديث ابن مسعود؛ لأنه قال: "من لا يشرك بالله شيئًا" هذا يشمل الشرك الأصغر والأكبر، والأول قلنا الأظهر أنه في الأكبر، ودلالة حديث جابر مثل دلالة حديث ابن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- علىٰ الباب.

إذن: وقوله: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ به شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، فدخول الجنة إما دخولٌ أوَّليٌّ، وهذا طبعًا في المُوحِّدين، الموحد إما أن يكون قد مات علىٰ غير ذنب، فهذا يدخل الجنة مباشرةً، وإما أن يكون مات علىٰ ذنب، هذا الذنب تحت مشيئة الله، إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له، لكن هناك -قطعًا- طائفةٌ من الأمة ستُعذَّب، سيخرجون من النار كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح، وطائفة من الأمة سيدخلون الجنة وإن كانوا

عصاة إلا أنهم لا تمسهم النار أبدًا، لكن من هؤلاء ومن هؤلاء؟ علمهم عند الله -عز وجل-، يظهر أمرهم يوم الجزاء والحساب، لا يُدرَكُ إلا يوم الجزاء والحساب، فهؤلاء الطائفة ستدخل النار قطعـًا، ثم يخرجهم الله -عز وجل- من النار بعد أن يكونوا حُمَمًا، ثم يدخلهم الله الجنة.

طائفة أخرىٰ من هذه الأمة من أهل الكبائر يموتون عليها، سيغفر الله لهم دون أن تصيبهم النار، وهؤلاء «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ به شَيْئًا دَخل الْجَنَّةَ» هو في أهل الكبائر من هذه الأمة، ولهذا في حديث أبي ذر -رضي الله تعالىٰ عنه- أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قال: - «أتاني جبريلُ، فبشَّرني أنَّهُ مَن مات لا يُشرِكُ باللهِ شيئًا دخل الجنَّةَ»، فقال أبو ذر -رضي الله تعالىٰ عنه- للنبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: "وإن زَنَىٰ وإن سرقَ؟ قال: «وإن زَنَىٰ وإن سَرقَ»، قال: "وإن زَنَىٰ و إن سرقَ؟ قال: «وإن زَنَىٰ وإن سَرقَ»، "وإن زَنَىٰ و إن سرقَ؟ قال: «وإن زَنَىٰ وإن سَرقَ»، وهذا في أهل الكبائر من أهل الأمة لكنهم بشرط أن لا يشركوا بالله -عز وجل- شيئا.

{بَابُ الدُّعَاءِ إِلَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ اللَّهُ، وَقَوْلُهُ اللَّه تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لَمَّا بَعَثَ مُعَاذاً إِلَىٰ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّك تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» - وفِي رِوَايَةٍ: «إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ - فَإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِم خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِم، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِك فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَها وبَيْنَ اللَّهِ حِجابٌ» أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ»، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوا عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ به فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ به وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فقَالَ: «انْفُذْ عَلَىٰ رِسْلِكَ حَتَّىٰ تَنزَلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُم إِلَىٰ الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِم مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ» - يَدُوكُونَ: أي يَخُوضُونَ)}.

هذا بَابُ الدُّعَاءِ إِلَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إلا اللَّهُ؛ أي باب الدعاء إلىٰ الإسلام؛ لأن أول ما يكون به الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله، وهذه الترجمة عَقَدَها المؤلف -رحمه الله- لعدة أمور.

الأمر الأول: بيان الوجوب، وجوب الدعوة إلىٰ توحيد الله -عز وجل-.

والثانية: بيان فضل الدعوة إلىٰ التوحيد.

والثالثة: بيان أن أول ما يُدعَىٰ إليه من دين الله هو التوحيد.

والرابعة: منهج الدعوة إلىٰ التوحيد.

فباب الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله تَضمَّنَ هذه الأمور الأربعة: وجوب التوحيد، وفضل التوحيد، ومنهج الدعوة إلىٰ توحيد الله -عز وجل-، وأوَّلِيَّة الدعوة إلىٰ توحيد الله -عز وجل-.

الأول: وجوب الدعوة إلىٰ توحيد الله -عز وجل-، هذا أولاً علىٰ تفصيل في الوجوب طبعًا كما سيأتي.

الثانية: فضل الدعوة إلىٰ التوحيد.

الثالثة: منهج الدعوة إلىٰ التوحيد.

الرابعة: أن التوحيد هو أول ما يدعىٰ إليه من دين الله، هذه أربعة أمور، وكلها في الأدلة التي ذكرها الإمام -رحمه الله-.

عندنا الآية الأولىٰ وهي قول الله -عز وجل-: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، هذه الآية أمر الله نبيه -صلىٰ الله عليه وسلم- أن يقول للناس: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ هذه طريقي، ﴿أَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾؛ أي أنا أدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة أي علىٰ علم، وكذلك أتباعي يدعون الله -عز وجل- علىٰ بصيرة، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فهنا أمر من الله لنبيه -صلىٰ الله عليه وسلم- ببيان هذا السبيل، والأمر يقتضي وجوب الامتثال، فدل ذلك علىٰ أن الدعوة إلىٰ التوحيد واجبة؛ لأنها داخلة في الدعوة لدين الله، ولهذا الله -عز وجل- قال لنبيه -صلىٰ الله عليه وسلم-: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ﴾ [الشورىٰ: ١٥]، بعد أن قال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، قال بعده -بعد الآيات-: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

إذن: فالنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- مأمورٌ أن يدعو إلىٰ التوحيد، وأتباعه تابعون له فيما أمره الله -عز وجل- به إلا إذا دل الدليل علىٰ اختصاصه -صلىٰ الله عليه وسلم- بذلك الحُكم.

ثانيًا: أنه قال: ﴿أَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ﴾، وهذا يتعلق بمنهج الدعوة، فالذي يدعو إلىٰ الله لا يدعو إلىٰ نفسه، ولهذا الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- ذَكَرَ في المسألة الثانية قال: التنبيه علىٰ الإخلاص؛ لأنك كثيرًا من الناس لو دعا إلىٰ الحق فهو يدعو لنفسه، ﴿أَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ﴾ يعني ما يدعو النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- لنفسه، ولا يدعو إلىٰ عشيرته ولا يدعو إلىٰ غرض آخر، يدعو إلىٰ الله -عز وجل-، فدعوته لله وخالصة لله؛ أي إن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- يدعو الناس إلىٰ عبادة الله، وهذه الدعوة إلىٰ عبادة الله من منهج النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أنه دعا فيها إلىٰ الله علىٰ بصيرة؛ أي علىٰ علم، فالدعوة للتوحيد يجب أن تكون عن علم، ونبينا -صلىٰ الله عليه وسلم- ما كان يدعو إلا عن عِلم؛ ولهذا إذا سُئل عن شيء لم يسبق له به عِلمٌ من ربه؛ لم يُجِبْ حتىٰ ينزل عليه الوحي، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، ما أجابهم -عليه الصلاة والسلام- مباشرة بل حتىٰ نزل عليه الوحي، وفي آيات كثيرة، ومن راجع قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ أو ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ﴾ أو هكذا، وجد نصيباً كبيراً.

الشاهد من هذا: أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- يدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرة، فوجب أن يكون أتباعه يدعون إلىٰ الله علىٰ بصيرة، فإذن: هذا يتعلق بمنهج الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله؛ أي تكون الدعوة إلىٰ الله، لا إلىٰ غير الله؛ ولهذا الإمام -رحمه الله- نفسه قال: (بَابُ الدُّعَاءِ إِلَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ اللَّهُ)، فهذه الجملة باب الدعاء إلىٰ شهادة الله، ذكرها بدون أن يسبق الدعاء بلفظ آخر، ما قال: باب وجوب الدعوة إلىٰ الله، ولا قال: باب وجوب الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، ولا قال: باب فضيلة الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، ولا قال: باب منهج الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، ولا قال: باب أول ما يدعىٰ إليه الناس شهادة أن لا إله إلا الله، بل قال: بَابُ الدُّعَاءِ إِلَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ اللَّهُ، ليشمل هذا كلَّ هذه الأشياء.

فهنا قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ قلنا: فيها بيان منهاج الدعوة من وجهين:

الوجه الأول: أن الدعوة تكون إلىٰ الله، لا إلىٰ غيره، لا إلىٰ نفس الداعي ولا إلىٰ غيره، بل تكون لله -عز وجل-، إلىٰ الله، يعني يدعو الناس، يقول انقادوا إلىٰ الله.

والثانية: أنها تكون علىٰ بصيرة؛ أي علىٰ علم بما يدعو إليه، وهذا في شأن الشريعة كلها، فما الظن برأس الأمر وهو الإسلام؟ هو أولىٰ وأحرىٰ أن لا يتكلم الإنسان فيه إلا بعلم، ومن هنا وجب علينا جميعًا أن لا نتكلم في مسائل الدين ولا في مسائل الاعتقاد علىٰ وجه الخصوص في التوحيد إلا عن علم يُحقَّقٌ، وليس عن ظنون ولا شكوك، لكن عن علم يحقق.

وفيها أيضًا بيان فضيلة الدعوة إلىٰ توحيد الله؛ لأن هذا هو سبيل النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-؛ لأن فيها فضيلة من جهة الاتباع، وفيها أيضًا وجوب من جهة الامتثال؛ لأن هذا السبيل الذي أمر به النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ﴾ التي أمر الله -عز وجل- في القرآن هي المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، إذن: هذا داخل في سبيل الله؛ فدل ذلك علىٰ وجوب الدعوة إلىٰ الله وعلىٰ فضلها وعلىٰ منهاج النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، ولهذا قال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي وما أنا من المشركين في دعوة الناس إلىٰ غير الله، وما أنا من المشركين في دعائي غير الله -عز وجل-، فدل ذلك علىٰ أنه كما أنه يدعو إلىٰ الله أيضًا يدعو إلىٰ، يعني ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذا تنزيه لله -عز وجل- عن الإشراك المؤكد لقوله: ﴿أَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ﴾، يعني لا أدعو أحدًا غيره ولا أدعو لنفسي، وهذا يدلك علىٰ أن من الأمور الفظيعة والشنيعة أن يدعىٰ إلىٰ غير الله باسم دين الله، وهذا موجود في الطرق المنحرفة عن سبيل الله، وموجود أيضًا في الجماعات المنحرفة عن دين الله، يظهرون الدعوة إلىٰ الإسلام وهم في الحقيقة لا يدعون إلىٰ الإسلام، يدعون إلىٰ الحزب أو إلىٰ التنظيم أو إلىٰ الجماعة أو إلىٰ الطريقة، يقولوا هذا دعوة إلىٰ الله، ليس دعوة إلىٰ الله، هذا دعوة إلىٰ مخلوق أو دعوة إلىٰ أمر دنيوي وليس بدعوة إلىٰ الله، فيجب أن تكون الدعوة إلىٰ الله بينة وظاهرة.

ثم ذكر حديث ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنهما- في قصة بعث النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- معاذًا إلىٰ اليمن، «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فدل هذا علىٰ أن أول ما يُدعىٰ إليه المكلف هو التوحيد، هو شهادة أن لا إله إلا الله وهذا نص واضح، فليكن أول ما تدعو إليه، فدل ذلك علىٰ أمرين أو علىٰ أكثر من أمر.

الأمر الأول: أولية الدعوة إلىٰ التوحيد، بمعنىٰ أن الداعي إلىٰ الله أو ما يدعو إلىٰ التوحيد؛ لأن بعض الناس اختلف منهجهم عن الأنبياء والمرسلين، أول ما يدعون يدعون إلىٰ الأخلاق، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، فالدعوة إلىٰ التوحيد ابتداءً، والنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- دعاهم إلىٰ التوحيد ابتداءً، ولما بعث رسله -ومنهم معاذ- أَمَرَهم بأن يدعوا الناس إلىٰ التوحيد.

إذن: التوحيد هو رأس الأمر، لا بدَّ من الدعاء التوحيد ابتداءً، ماذا ينفع الإنسان إذا صار ذا أخلاق وهو غير موحد؟! أول ما يدعو الناس إليه التوحيد، ولهذا بعض الناس قد يكون في بلدان وإن كانت بلادًا إسلامية لكن منتشر فيها الإشراك بالله، فالكلام عند التوحيد مهمشٌ أو قليلٌ أو أحيانًا لا يتحدثون عنه بحجة أن الدعوة إلىٰ التوحيد تُفرِّقُ الناس، والذي يقول هذا الكلام علىٰ خطأ، أنه يتهم النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- والأنبياء أنهم يفرقون الناس، ثم إن اجتماع الناس يجب أن يكون علىٰ التوحيد، إذا لم يكن توحيدٌ فلا اجتماعَ، فالله جعل التوحيد هو الفاصل بين المؤمنين وبين الكافرين، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَىٰ الإِيمَانِ﴾ [التوبة: ٢٣].

فالمسألة مفاصلة في التوحيد، لا يصلح أن يقال: لا تدعو الناس إلىٰ التوحيد، أنك تفرق الناس وتفرق المسلمين، هذا ضلال، بل هؤلاء الذين وقعوا في الشرك وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، إذا ماتوا علىٰ ذلك فلِمَن تَرَكَهم علىٰ هذه الحال لم يأمرهم ولم يَنْهَهم، له نصيب من العذاب يوم القيامة، فينبغي للإنسان أن يتنبه إلىٰ هذا الأمر الجلل وإن عارض فيه بعض الناس، المعارض جاهل أو ظالم، الدعوة إلىٰ التوحيد يجب أن تبقىٰ، النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- كان يدعو إلىٰ التوحيد مُذْ بعثه الله إلىٰ أن أماته الله، كان في السياق -في سياق الموت- يطرح خَمِيصَةً علىٰ وجهه كلما اغتم بها كشفها يقول: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ اليَهُودِ والنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يُحذِّرُ ما صنعوا، هذا ثابت في الصحيحين.

وفي حديث جرير: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَىٰ اللَّهِ، أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ»، ثم ذكر النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ اليَهُودِ والنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، هذا متىٰ قاله؟ قاله قبل موته بخمس ليالٍ، من كان يتكلم؟ كان هذا الكلام عند من؟ كان عند المهاجرين والأنصار وكان فيهم المبشرون بالجنة وكان فيهم فقهاء الصحابة وعلماؤهم، وكان يقول ذلك في خير قرون هذه الأمة، وفي جيل هو أكمل الخلائق بعد الأنبياء

-عليهم الصلاة والسلام-، يقول في هذا يحذرهم للتخويف من الوقوع في الشرك من جهة، والثانية تثبيتهم علىٰ التوحيد، والثالثة النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- يدعو إلىٰ التوحيد حتىٰ توفاه الله -عز وجل- وهو كذلك.

فلا يصح لأحد أن يقول: إن الدعوة إلىٰ التوحيد تدعو في صفوف المسلمين، لا تدعو، يعني لما نتكلم عن التوحيد مثلاً في المساجد وفي خطب الجمعة وفي غيرها، لا تقل: إن الناس موحدون، لا تقل هذا الكلام؛ لأنك تخالف القرآن والسنة، فالقرآن مليء بالدعوة إلىٰ التوحيد، لماذا لم ينسخه الله -عز وجل- بعد أن ثَبَتَ التوحيد في الصحابة؟ لا زال باقيًا وما نُسِخت آية في التوحيد، ثم إن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- كان يتكلم عن التوحيد ويحذر لما قال رجل: ما شاء الله وشئت، غضب النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، لما سمع رجلاً يحلف بآبائه، سمع عمر يحلف بآبائه، نهاه عن ذلك قال: «لا تَحلِفوا بآبائكم»، وكان يعلمهم التوحيد -عليه الصلاة والسلام- حتىٰ توفاه الله -عز وجل-، فالذي يقول: لا تقل عند الناس التوحيد والناس موحدون والناس يعرفون التوحيد، هذا يُخَطِّئُ النبي -عليه الصلاة والسلام- في حقيقته وإن لم يقصد ذلك، لكن معناه أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- كان مخطئًا، فإذا كان النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قاله في أكمل جيل وخير قرن في هذه الأمة، فما الظن بمن جاء بعده بمن نقص عِلمُهم وضعُف يقينُهم وتنازعتهم الشبهاتُ والفتنُ من كل جانب؟! هم أحرىٰ بأن يُعَلَّموا ويُنَبَّهوا ويتابعوا في مسائل التوحيد، هذا أمر مهم يجب التنبُّه له والاعتناء به، والسلف الصالح -رضي الله عنهم- كان لهم كتب حتىٰ في الأسماء والصفات، كتب في التوحيد، وكتب في مسائل العقيدة والاعتقاد، يؤلفون علىٰ مر القرون، لماذا؟ يعلمون الناس التوحيد، ويُثَبِّتون الناس علىٰ التوحيد، كون الإنسان يعلم التوحيد هذا خير، لكن أيضًا تكرار التوحيد يُثَبِّتُ الناس علىٰ توحيد الله -عز وجل-؛ لأن فيه تعليمًا للجاهل وتذكيرًا للناسي وتثبيتًا للناس علىٰ الحق.

إذن: حديث معاذ -رضي الله عنه- قال: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، هذا كان منهج النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أولية الدعوة إلىٰ التوحيد، قبل الصلاة، قبل الزكاة، ولهذا قال: «فَإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِم خَمْسَ صَلَوَاتٍ»، لماذا؟ لأنه لو صلىٰ دون أن يوحد الله فهو في النار، يعني لو جاء الآن عندنا يهودي أو نصراني من أهل الكتاب وما شهد أن لا إله إلا الله، يعني ما أتىٰ بالشهادتين، وصلىٰ، فصلاته لا تنفعه، النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- رَتَّبَ الصلاة، ثم بعدها الزكاة علىٰ التوحيد، علىٰ شهادة أن لا إله إلا الله.

إذن: أول ما يُدعىٰ إليه التوحيد، هذا أولاً.

وثانيا: أول واجب علىٰ المكلف التوحيد، يعني أول ما يجب علىٰ المكلف هو أن يوحد الله، وهذا المعتقد هو معتقد أهل السُّنَّة والجماعة، أول واجب علىٰ المكلف أو أول شيء يجب علىٰ المكلف أن يأتي به هو توحيد الله -عز وجل-؛ لأنه قال: «أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، ولو كان شيء قبلها لأمره النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- به، فبدأ -صلىٰ الله عليه وسلم- بالأهم، ثم المهم، والحديث واضح في هذا وبَيِّنٌ في الدَّلالة علىٰ المطلوب.

ثم ذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في مسائل التوحيد، لمَّا ذكر في مسائله قال: (هو أول ما يدعىٰ إليه) يعني التوحيد، أين أخذه؟ أخذه من حديث معاذ هذا.

الثاني: أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- من الدلالة لحديث ابن عباس «إِنَّك تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- بعث معاذًا إلىٰ اليمن يدعوهم، فدل ذلك علىٰ أن الدعوة إلىٰ التوحيد واجب علىٰ المسلمين علىٰ جهة العموم؛ لأنها أحيانا تكون فرضًا عينيا وأحيانا فرضا كفائيا، فإذا قام بها مَن يكفي، سقط الإثم، النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- ما بعث الناس كلهم يدعون إلىٰ الله، بعث من تقوم به حجة الله علىٰ الناس، وهذا دليل علىٰ أن الدعوة إلىٰ التوحيد واجبٌ علىٰ المسلمين، علىٰ جهة العموم.

الثالث: أن هذا الحديث ساقه المؤلف لبيان كيفية الدعوة إلىٰ الله في الآية السابقة، يعني هذا الحديث من الأحاديث المُبيِّنة لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾، ننظر إلىٰ سيرته -عليه الصلاة والسلام-، لما بعث معاذ إلىٰ اليمن أمرهم أن أول ما يدعوهم إليه التوحيد، فدل ذلك علىٰ أن من سبيله -عليه الصلاة والسلام- في الدعوة إلىٰ التوحيد، ﴿أَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ﴾ يعني أدعو إلىٰ الله إلىٰ التوحيد، وهو أول ما أدعو إليه؛ لأنه لما بعث معاذًا إلىٰ اليمن أمره بأن يدعوهم إلىٰ التوحيد، والنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- هو المبين عن الله آياته.

ثم إنه أيضًا ذكر هنا في الحديث معنىٰ التوحيد الذي يدعىٰ إليه، باب الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وفي الحديث: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وهذا الحديث يُبَيِّنُ أن قوله: أدعو إلىٰ الله يعني معناه أدعو إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله.

ثم جاء بحديث سهل بن سعد -رضي الله عنه-، «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ» الحديث.

هذا الحديث كسابقه، فإن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قال لعلي -رضي الله عنه- بعد أن دفع إليه الراية، وهذا من فضائل علي -رضي الله عنه-؛ لأنه ثبت بهذا أن عليًا يحب الله ورسوله، والله ورسوله يحبان عليًّا -رضي الله عنه-؛ لأن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قال: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»، جمع له بين الأمرين، إذا جمع الله له بين الأمرين، فهو داخل في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُداًّ﴾ [مريم: ٩٦]؛ أي محبة منه -جل وعلا- لعبده؛ لأن العمل هذا الذي هو الراية والجهاد في سبيل الله، هذا من أعمال الصالحات، هذا من العمل الصالح، إذن: علي -رضي الله عنه- داخل في هذه الآية دخولا أوليا؛ لأنه قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُداًّ﴾، وعلي -رضي الله عنه- ثَبَتَ أنه عمل صالح جهاد، وأثبت النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أنه يحب الله ورسوله، والثالث أثبت النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أن الله ورسوله يحبان علي، فالله ورسوله لا يحبان إلا المتقين والمحسنين.

إذن: فعلي -رضي الله عنه- إذا تُلِيَتْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُداًّ﴾ لم تنزل هي في علي، لكنْ عليٌّ داخل فيها لهذا الحديث.

قال: (فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا)، يعني يخوضون في تلك الليلة، يعني كأنهم يتحاورون من يعطىٰ هذه الراية، ليس لخصوص الراية ولكن لما رتب عليها من الفضل؛ لأن كون الإنسان يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، هذا خبر، وهذا الخبر يستوجب أن يطلب الإنسان مقتضاه، يعني ويتمنىٰ أن يكون هو صاحبَ هذا أو المخبَرَ عنه، فكان المُخْبَرُ عنه هو عليًّا -رضي الله عنه-.

إذن: النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أخبر بهذا الخبر، ثم أمر قال: «انْفُذْ عَلَىٰ رِسْلِكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ» ساحة المشركين، «ثُمَّ ادْعُهُم إِلَىٰ الْإِسْلَامِ»، إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم قال: «وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِم مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِيهِ»، ما هو حق الله تعالىٰ فيه؟ حقه الصلاة والزكاة والصيام والحج، يعني شرائع الإسلام هي حق الله، مثلها مثل حديث معاذ: «فَإِنْ هُم أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِم خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِم».

إذن: هذه شرائع الإسلام، مثله هذا الحديث حديث سهل مثل حديث ابن عباس في قصة معاذ -رضي الله تعالىٰ عنه-.

إذن: فأول واجب، أول ما يدعىٰ إليه الناس هو التوحيد، هذا أولاً؛ لأن قوله: «ثُمَّ ادْعُهُم إِلَىٰ الْإِسْلَامِ»، المراد به شهادة أن لا إله إلا الله، كما في الحديث الآخر حديث معاذ «رأس الأمر الإسلام» الذي هو التوحيد، ثم إنه أيضًا أول واجب علىٰ المكلف وإلا لما قدمه النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- علىٰ غيره، وأيضًا هذا الحديث مثل حديث معاذ في بيان منهاج النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- في الدعوة إلىٰ الله، فهو داخل في بيان الآية ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

والله تعالىٰ أعلم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

كتاب التوحيد

للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب

المجلس الرابع

فضيلة الشيخ/ عبد العزيز بن محمد السعيد

{بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المؤلفُ -رحمه الله تعالى-: (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.

وقول الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي...﴾ الآية [الزخرف: ٢٦- ٢٧].

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ...﴾ الآية [التوبة: ٣١].

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ...﴾ الآية [البقرة: ١٦٥].

وفي الصحيح عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَن قالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بما يُعْبَدُ مَن دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ علَى اللَّهِ عزَّ وجلَّ».

وشرح هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب)}.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله وعلى آله ومن اهتدى بهداه.

هذا بابُ تفسيرِ التوحيدِ وشهادةِ أن لا إله إلا الله.

التوحيدُ: هو شهادةُ أن لا إله إلا الله، وشهادةُ أن لا إله إلا الله هي التوحيدُ؛ ولذلك قولُه هنا: تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله يكون عطفًا.. شهادة أن لا إله إلا الله على التوحيد من باب العطف التفسيري؛ أي كأنه يفسر التوحيد ها هنا بأنه شهادة أن لا إله إلا الله، فالعطف هنا للبيان والتفسير، وليس عطفًا مقتضيًا للمغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه.

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله وقول الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، وذكر جملة آياتٍ وحديثًا، ويريد بها أن يُبَيِّنُ معنى لا إله إلا الله على جهة الإجمال، وهو ما نبه عليه في آخر الباب، قال: وشرح هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب.

الآية الأولى وهي قول الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾.

أولًا: هذه الآية لا بدَّ من فهم معناها، ومعناها: أن الله -عز وجل- يقول: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي أولئك الذين يدعونهم هؤلاء المشركون هم: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ أي إن المشركين الذين يدعون عيسى ابن مريم -عليه السلام-، هذا المدعو وهو عيسى هو نفسه يبتغي إلى ربه الوسيلة، أي القُربى، أي هو يطلب من ربه.. من دعا الملائكة، وعبد الملائكة؟ الملائكة يبتغون إلى ربهم الوسيلة، أي القُربى، وهذا يقرر أن العابد والمعبود في عبادة المشركين كلهم مخلوقون لله، فلا يدعو مخلوقٌ مخلوقًا، وإنما يدعو المخلوق الخالق، فإذا كان هذا الذي يدعوه هذا المشرك هو لا حول له ولا قوة، وإنما يتوسل إلى الله ويدعو الله -عز وجل- ويتقرب إليه بالعبادات رجاء أن يرحمه الله -عز وجل-، فكيف يُدعى؟

فنحن لو نظرنا مثلًا الآن إلى الذين يدعون السيد البدوي، أو الجيلاني، أو العيدروسي، أو الحسين، أو فاطمة أو غيرهم مما يدعون من دون الله، هل فاطمة -رضي الله عنها- كانت تتقرب إلى الله وتسأله الرحمة والمغفرة أو لا؟ إذن هي تسأل الله المغفرة والرحمة، إذن هي عابدة لله، والعابد لربه لا يستحق أن يكون معبودًا؛ لأنه ليس ثَمَّة إلا عابدٌ ومعبودٌ، كما أنه ليس ثَمَّة إلا خالقٌ ومخلوقٌ، فلو سألنا إنسانًا من هؤلاء المشركين: هل هناك خالقٌ غير الله؟ قال: لا، من سوى الله هل هم مخلوقون أو خالقون؟ قال: مخلوقون، العبودية وصف لمن؟ هل هي للخالق أو للمخلوق؟ هي صفة للمخلوق، هو الذي يعبد الله، والله -عز وجل- هو المعبود، وعلى هذا إذا دعا الإنسان غير الله، فقد جعل العابدَ معبودًا والمخلوقَ خالقًا، وهذا يُبَيِّنُ معنى الآية، ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ﴾ أي: أولئك الذين تدعونهم أيها المشركون هم أنفسهم ﴿يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، يعني القربى، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، وهذه لا تكون أبدًا إلا لصفة في مخلوق، فكيف يُدعى من دون الله.

وبناءً على هذا نقول: إن هذه الآية وهي قول الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، فيها من بيان الدلالة على التوحيد أولًا، أن هذه الآية تدل على

أنه ليس ثَمَّة واسطةٌ بين الله وبين خلقه في عبادته، فهي تنفي جميع الوسائط. والمذكورون في الآية فسروا بأنهم عيسى وأمه وعزير، فسروا بالملائكة، وفسروا بالأولياء، وهذه التفسيرات لا تعارض بينها؛ لأن المقصود منها المثال وليس المقصود منها الحصر، المقصود المثال يعني من عبدَ المسيح كمن عبد الملائكة، كمن عبد مريم، كمن عبد عيسى، كلهم سواء، لماذا؟ لأنهم عبدوا غير الله.

إذن الآية في كل ما يُعبد من دون الله، إذن اتخاذ الواسطة مناقضٌ للتوحيد، وبالتالي نقول: التوحيد هو دعاء الله -عز وجل- وعبادته بلا واسطة من خلقه، لا نبي ولا ملك ولا وليّ ولا غير ذلك، هذا أولًا.

ثانيًا: الآية تدل على أن التوحيد يكون بالقلب واللسان والجوارح، فما يكفي أن الإنسان يعتقد أن الله واحدٌ ولكن يناقض ذلك بفعله أو قوله، أو يقر بقلبه ولسانه ولكن لا يعمل بجوارحه.

إذن الآية تدل على هذا، الدلالة عليه قال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، والدعاء عامٌّ يشمل أنواع العبادة كلها، يدخل فيها العبادات القولية واللسان والجوارح والقلب، كلها تدخل، ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، قوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ هذا من أعمال القلوب لا يطَّلع عليها إلا الله -عز وجل.

إذن فهذه الآية أيضًا تدل على أن التوحيد يكون بالقول واللسان والجوارح، وأيضًا ذَكر المؤلف -رحمه الله- الآية الأخرى وهي قول الله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾، هذه الآية هي في الحقيقة كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤]، وهذه الآية التي ذكرها المؤلف ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ﴾ هي خبرٌ من الله عن قول إبراهيم -عليه السلام- لقومه، والآية الثانية في "آل عمران" هي أمر من الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يقول لأهل الكتاب: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾.

إذن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾، قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله هو معنى لا إله إلا الله، لماذا؟ لأنه هنا يتبرأ مما يُعبد من دون الله، وما يُعبد من دون الله :كل آلهة سوى الله، فعبادتها عبادة لغير الله، فيجب أن يتبرأ الإنسان منها؛ فقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي من جميع ما تعبدون، سواء كانت هذه المعبودات من الكواكب، كما كان في قوم إبراهيم -عليه السلام- من الشمس

والقمر والنجوم، أو كانت من الأشجار والأحجار، أو كانت من الملائكة، أو كانت من الأنبياء، كل ما يعبد من دون الله تبرأ منه إبراهيم، ثم استثنى ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾.

فهذا الاستثناء هو معنى قولنا في الشهادة: إلا الله، فقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ﴾ هو معنى قوله: لا إلهَ، وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي إلا الله، وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ يعني: إلا الذي خلقني وأوْجدني من العدم، وهذه إشارة إلى أن المستحق للعبادة هو الخالق دون ما سواه؛ لأنه قال: ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾، وقلنا فيما سبق: إن الله –عز وجل– يذكر توحيد الربوبية؛ لأنه مستلزمٌ لتوحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، فكأنه يقول في الآية أنا أعبد الذي خلقني، وهذه إشارة إلى أن المستحق للعبادة هو الخالق دون ما سواه، وأن من أقرَّ بربوبية الله لزمه أن يعبد الله وحده لا شريك له.

إذن هنا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله فدلَّ ذلك على أن معنى لا إله إلا الله والبراءة من الشرك، ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله، والبراءة من الشرك وإخلاص التوحيد، والذي دلَّ عليه ﴿إِلاَّ اللَّهَ﴾.

إذن التوحيد –من خلال هذه الآية– البراءة من الشرك وإخلاص التوحيد، ومعنى ذلك أنه لا يكفي أن توحِّد، لكن لا بدَّ أن تتبرأ من الشرك، وهذا يقع فيه كثيرٌ من الجهلة، قد يشهد أن لا إله إلا الله ولا يعبد إلا الله، لكن لا يتبرأ من الشرك، وهذا لا ينفعه؛ لأن الله قال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهو معنى قول إبراهيم في هذه الآية.

ثم ذكر الآية الأخرى وهي في سورة "التوبة": ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: هذه الآية عقد لها المؤلف فيما سيأتي –إن شاء الله– بابًا معقودًا في هذا، وهو (باب: من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله)، لكن هنا المؤلف يريد أن يُبَيِّنُ في هذه الآية أن التوحيد كما يكون في توحيد العبادة أيضًا يكون في توحيد الطاعة؛ لأن الشرك يقع في توحيد العبادة ويقع في توحيد الطاعة، فقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابنَ مريمَ﴾.

المؤلف ذكر ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، هذه الجملة تدلُّ على توحيد الطاعة، وأن التوحيد كما أنه توحيد في العبادة هو كذلك توحيد في الطاعة، بمعنى أن يطيع الله ورُسُلَه، وهذا هو التوحيد، توحيد الطاعة، وسيأتي -إن شاء الله تعالى- التفصيل فيه.

وقوله: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾، هذا اتخذوه؛ أي عبدوه من دون الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وهذا طبعًا يقوله الله -عز وجل- لعيسى -عليه السلام- يوم القيامة، لكنه عبَّر عنه بصيغة الماضي؛ لأنه متحقق الوقوع، خبر متحقق وقوعه، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، إذن عبودية عيسى -عليه السلام- باطلة؛ لأنه قال: ﴿مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، ليس له حق في العبادة، ليس لعيسى -عليه السلام- حقٌّ في أن يُعبد.

إذن فالجزء الأول من الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، وهو الذي اقتصر عليه المؤلف وهو متعلق بتوحيد الطاعة.

والقسم الثاني: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي اتخذوا المسيح ابن مريم، هذا متعلق بتوحيد العبادة، فدلَّ ذلك على أن التوحيد يشملُ توحيدَ العبادة ويشمل توحيدَ الطاعة، وأن من لم يطع الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- أو من لم يطع الله ورسلَه، فإنه لا يكون محققًا لتوحيد الله -عز وجل.

والآية الثالثة قول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾، وهذه الآية في شرك التَّسوية؛ أي تسوية المخلوق بالخالق، كما ذكر الله على المشركين في سورة "الشعراء" أنهم قالوا: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٨].

والآية وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أيضًا عقدَ لها المؤلف بابًا سيأتي -إن شاء الله تعالى-، ولكن المقصود هنا: أن المشركين اتخذوا آلهةً يحبونهم كما يحبون الله -عز وجل-، أي سووا بين آلهتهم وبين الله في المحبة، وهذا شركٌ في المحبة، شركٌ في التسوية بين الخالق والمخلوق.

وهذا على أحد التأويلين في الآية، وسيأتي -إن شاء الله تعالى- بيان ذلك في موضعه، لكنْ هنا المشركون سووا بين الخالق والمخلوق في المحبة، وهذا دليلٌ على أن التوحيد والشرك يتعلقان أيضًا بالقلب؛ لأن المحبة قلبية، وهذه الآيات التي ذكرها الإمام -رحمه الله تعالى- هنا.

قال: (وفي الصحيح عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بما يُعْبَدُ مَن دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ علَى اللَّهِ»)، قوله: (وفي الصحيح) هذه العبارة يُطلقها العلماء على الحديث إذا كان في أحد الصحيحين أو فيهما معًا، يعني قد يكون الحديث مخرَّجًا في البخاري ومسلم، فيُقال في الصحيحين، وقد يكون مخرجًا في مسلم وحده كما هنا، فيقال في الصحيح، قد يكون مخرجًا في البخاري، ويقال أيضًا كما هنا وفي الصحيح.

قال: «مَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بما يُعْبَدُ مَن دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ علَى اللَّهِ».

أولًا: هذا الحديث متعلقٌ بماذا؟ متعلقٌ بالمعاملة الدنيوية؛ بمعنى أن من قال: لا إله إلا الله ولم يأتِ بما يناقضها؛ وجب الكفُّ عن قتاله وكان دمُه وماله حرامًا، ولو كان مبطنًا للنفاق؛ لأن ما في القلب لا يعلمه إلا الله، إن قال: لا إله إلا الله، ولم يأتِ بأعمال تنقض لا إله إلا الله، ما أتى بأقوالٍ ولا أفعالٍ تنقض لا إله إلا الله، لكنه في باطنه كافرٌ كالمنافقين، هذا يَحرم مالُه ودمه في الدنيا، لكنه لا ينجو في الآخرة، لكن من قالها صدقًا من قلبه مستوفيًا شروطها، نجَّته في الدنيا والآخرة؛ كانت له النجاة في الدنيا والآخرة.

الحديث قال: «مَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بما يُعْبَدُ مَن دُونِ اللهِ»، هذا هو معنى التوحيد، التوحيد هو: شهادة لا إله إلا الله والكفر بما يُعبد من دون الله، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، هذا هو معناه، وأيضًا تضمَّن هذا الحديث شرطًا من شروط التوحيد. أو لا إله إلا الله، وهي التي يُعبِّر عنها بعض العلماء بالإخلاص. ويُعبر عنها بعضُ العلماء بالكفر بما يُعبد كالطاغوت. كلاهما صحيح.

كما دلَّ الحديث على أن التوحيد لا بدَّ فيه من قولٍ، فلو اعتقد الإنسان أن الله وحده لا شريك له لكنه لم يتلفظ بذلك، فقد أجمع العلماء على أنه ليس بمسلمٍ لا في الدنيا ولا في الآخرة.

أبو طالب كان موقنًا بأن النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- رسول من ربِّ العالمين، لكنه لم ينطق بذلك، يعني لم يشهد أن لا إله إلا الله، موقنًا بأن ما جاء به النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- حقٌ وصدقٌ لكنه لم ينطق به، فمات على الكفر، وثبت عن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- أنه في النار، في ضحضاح من النار.

إذن هذا الحديث أورده المؤلف لأجل بيان تفسير التوحيد؛ لأنه ذكر فيه الإثبات والنفي لمن قال: لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله، وذكره لأن فيه شرطًا من شروط لا إله إلا الله أيضًا هي مبينةٌ وكفر بما يعبد من دون الله، وذكره أيضًا لأن فيه أن التوحيد أيضًا فيه قول، لا بدَّ فيه من القول.

وقبل الشروع في الباب الذي بعده، لا بدَّ من التعريج على أمر في عجالةٍ يذكره أهل العلم بمناسبة هذا الباب، وهو: أن شهادة لا إله إلا الله باستقراء أهل العلم وجدوا لها شروطًا دلَّ عليها الكتاب والسُّنَّة، بعضها تقدم معنا في هذا الباب أو فيما قبله.

هذه الشروط أولها: العلم، بمعنى: أن الإنسان لا بدَّ أن يعلم معنى هذه الكلمة، وأن المراد منها توحيد الله، إخلاص الدين لله، عبادة الله وحده لا شريك له، لا بدَّ أن يعلم معنى هذه الكلمة؛ لأن الله قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

إذن لا بدَّ من العلم، وفي حديث عثمان رضي الله عنه: «مَن ماتَ وهو يَعْلَمُ أنَّ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، دَخَلَ الجَنَّةَ»، هذا أولًا، هذا العلم.

ثانيًا: الإخلاص، الإخلاص: هو الذي ينافي الشرك، بمعنى أنه يعبد الله وحده لا شريك له؛ لأن الناس في العبادة ثلاثة أقسام:

قومٌ يعبدون الله وحده لا شريك له ولا يعبدون معه سواه، وهؤلاء هم أهل التوحيد، الخلَّص، وهم الحنفاء.

والقسمُ الثاني: من يعبد الله ويعبد معه غيره، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾، ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

وقسمٌ ثالثٌ: يعبد غير الله ولا يعبد الله، هذه ثلاثة أقسامٍ.

الإخلاص هو الأول، والثاني شركٌ والثالث شركٌ، كلها باطلةٌ إلا الأول وهو إخلاص الدين لله وحده لا شريك له، ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ المُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١١، ١٢]، قال تعالى: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، إذن هذا الإخلاص لا بدَّ منه في ذلك.

والثالثُ: المحبةُ وهي ضدُّ الكراهية والبغض أو عدم المحبة أصلًا، لو أن إنسان شهد لا إله إلا الله، لكن لا يحب لا إله إلا الله، لا يحب معنى لا إله إلا الله، أو يكرهه أو يبغضه، هذا مشركٌ كافرٌ ما آمن، لا بدَّ أن يحب لا إله إلا الله، وهذه المحبة متعينةٌ، ولا يتحقق توحيد العبد إلا بمحبة هذه الكلمة.

ورابعها: اليقين، وهو ضد الشكِّ، بمعنى أن الإنسان يوقنُ بأن الله -عز وجل- هو مستحقٌّ للعبادة، وأن عبادة ما دونه باطلةٌ، لا بدَّ أن يكون مستيقنًا بهذا غير شاكٍّ ولا مترددٍ، والشاك والمتردد ليس بموحدٍ، بل هو مشركٌ؛ لأن التوحيد يجب فيه الاعتقاد الجازم، وإلا من كان في ريبٍ وشك من هذه الكلمة فليس بموحدٍ، ولهذا قال النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم-: «أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ، من قالها غيرُ شاكٍّ فيها دخَلَ الجنَّةَ»، يعني من شكَّ فيها لا يدخل الجنة، يكون من أهل النار لأنه مشرك.

إذن اليقين لا بدَّ أن يكون مستيقنًا.

ثم بعد ذلك يأتينا الصدق، يعني يكون صادقًا في قوله لها وليس بكاذبٍ، والصدق أن يتواطأ القلب مع اللسان، أما إذا قالها بلسانه وهو لا يعتقدها بقلبه، فهذا ليس بصادقٍ، أو قالها بلسانه ولكنه لم يعمل بجوارحه وأتى بجوارحه ما يناقضها أيضًا هو كاذبٌ؛ لأن الجوارح تصدِّق ما في القلب أو تكذِّبه، ولهذا كان المنافقون يقولون لا إله إلا الله، ويصلون ويفعلون أفعالًا مع النَّبيِّ -عليه الصلاة والسلام-، ولكن الله -عز وجل- قال: ﴿إِنَّ المنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، يعني أشد عذابًا من الكفار، وقال عنهم: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وهم الذين ذكر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ المنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ المنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

ثم بعد ذلك يأتي القبول.

الشرط السادس: القبول: القبول ضد الرَّدِّ والرفضِ، بمعنى أن لا إله إلا الله لا تنفع صاحبها إلا إذا كان قابلًا لهذه الكلمة غير رادٍّ لها، أما إذا ردَّها ولو عمل بمقتضاها؛ فليس بمسلمٍ.

وكذلك أيضًا الانقياد وهو السابع، والانقياد هو ثمرة القبول؛ لأن الإنسان إذا قبل لا إله إلا الله؛ انقاد لها وله أسلم، قال تعالى: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ المخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]، ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ يعني: انقادوا، لكن إذا قال لا إله إلا الله ولم ينقَدْ لها، يعني ما عمل بالتوحيد، عمل بالشرك، هذا غير منقادٍ، ولو لم يعمل الشرك لكنه ما يقبل هذه الكلمة، ما يقبلها ولا يقبل معناها، مثل بعض الناس الآن ما يشرك لكن يقول لا إله إلا الله مثلًا هذه أوسع مما تزعمون؛ يعني يُدخل، يقول: النصارى يقولون لا إله إلا الله فيما يزعمون، واليهود يقولون لا إله إلا الله، وهؤلاء على خيرٍ.

وبعضهم يقول: لا؛ الجنة ليست مقصورةً على المسلمين. هذا ما قَبِل لا إله إلا الله أصلًا؛ لأنه لو قَبِلها ما أدخل فيها من ليس بأهلها، فهذا في حقيقته غير قابلٍ لـ "لا إله إلا الله"، وبالتالي هذا ليس من أهل التوحيد، هذا من أهل الإشراكِ.

فهذه سبعةُ شروطٍ ذكرها العلماء -رحمهم الله- لكلمة التوحيد وهي بالاستقراء، أي استقرَءوا النصوص ونظروا فيها، فاستخرجوا منها هذه الشروط كسائر ما يذكره العلماء من الشروط.. يستخرجونها بالدلائل من أدلة الكتاب والسُّنَّة ومن إجماعات أهل العلم ونحوها.

{...}

الإخلاص هو ألا يشرك، يعني ما يفعل الشركَ ولا يقول الشركَ؛ بمعنى أنه تكون كل أفعاله على التوحيد، لا يدعو إلا الله ولا يذبح إلا لله ولا يرجو إلا الله، ولا يتوب إلا إلى الله، هذا أخلص، لكن لو نذر لغير الله صار مشركًا، لو ذبح لغير الله صار مشركًا، لو دعا غير الله صار مشركًا، هذا الذي يتعلق بالإخلاص، أما القبول لا.

القبول معناه: -نضرب بمثال- أنت الآن فلانٌ من الناس، تقول هذا فلانٌ أقبَله، وهذا فلان ما أقبله، لكن إنك ممكن ما تتعامل معه أصلًا، ما تجد فيه قبولاً وإقبالاً عليه، فالقبول فيه معنى الإقبال على الشيء والرضا به والتسليم، القبول معناه: الرضا بالشيء والتسليم له.

ينتقل بعد ذلك إلى الفعل، الفعل: هو الانقياد، العمل هو الانقياد، ولذلك قالوا: الانقياد ثمرة القبول، وترى بعضهم يجعل القبول والانقياد كليهما بمعنى واحد، ما يفهم الفرق بينهما، والأمر يسير في هذا -إن شاء الله.

ثم قال المؤلف: وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب.

أي إن الأبواب التالية وهي نحوٌ من ستين بابًا، كلها تتعلق ببيان هذه الترجمة، (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)، وتفسير التوحيد كما قلنا -فيما سبق أظن- له طريقان:

الطريق الأول: هو بيان معنى التوحيد.

الطريق الثاني: بيان ما يناقض التوحيد وهو الشرك.

والمؤلف -رحمه الله- بدأ بالشرك قبل التوحيد في البيان، في هذا البيان بدأ بالأبواب أول ما بدأ بالأبواب المتعلقة بالشرك قبل التوحيد؛ لأن الشيء يتبين بضده، لما تقول مؤمنٌ، ضده الكافرُ، مشركٌ ضده المسلمُ، صادقٌ ضدها الكاذبُ، وهكذا.

كتاب التوحيد

للإمام المجدِّد محمد بن عبد الوهاب

المجلس الخامس

فضيلة الشيخ/ عبد العزيز بن محمد السعيد

{بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

اللهمَّ اغفر لنا ولشيخنا، وللمسلمين.

قال الإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالىٰ-: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحَلْقَةِ وَالخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ البَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ.

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ...﴾ الآية [الزُّمَر: ٣٨].

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ الحُصَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ. فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟» قَالَ: مِنَ الوَاهِنَةِ. فَقَالَ: «انْزِعْهَا، فَإِنَّهَا لَا تَزِيْدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فإِنَّكَ لوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ.

وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوْعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيْمَةً؛ فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، ومَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً؛ فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ»، وَفِيْ رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعلَّقَ تَمِيْمَةً، فَقَدْ أَشْرَكَ». وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الحُمَّىٰ؛ فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

قال الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -عليه رحمة الله-: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحَلْقَةِ وَالخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ البَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ).

هذا أول الأبواب التي تكلم فيها المؤلف -رحمه الله- عن الشرك، وجاء بهذا الباب بعد الباب السابق وهو باب الدعاء إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وقبله باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، وكما تقدم لنا

في أول الكتاب أن التوحيد يُعرف بمعناه كما يُعرف بنقيضه وهو الشرك، فبدأ المؤلف -رحمه الله- بذكر أبواب تتعلق بالإشراك بالله -عز وجل-؛ لأن من لم يعرف الشرك، لم يعرف التوحيد.

قال: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ) أي: هذا أحد أبواب الشرك، وليس هو كل أبواب الشرك؛ لأن أبواب الشرك كثيرة وهذا واحد منها؛ ولهذا قال العلماء: إن (مِنَ) هنا للتبعيض، (لُبْسُ الحَلْقَة) اللُّبْسُ بضم اللام، والحَلْقَة علىٰ المشهور بفتح اللام؛ لأن بعض أهل اللغة يفرق بين الحلَقة والحَلْقَة، فالذي لا ينفصل بعضه علىٰ بعض ولا يبِين بعضه من بعض يقال له: الحَلْقَة، مثل السوار وغيره، وما ينفصل بعضه عن بعض كمثلاً حلْقة الذكر ينفصل الناس بعضهم عن بعض، فهذه تنطق بإسكان اللام، والأولىٰ الحلقة تكون بالفتح وقد تُسكن.

(بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحَلْقَة وَالخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا)، قال: (الحَلْقَة وَالخَيْطِ) ليس الحكم هنا مختصًّا بالحلقة والخيط فقط، ولهذا عقبه المؤلف بقوله: (وَنَحْوِهِمَا) يعني نحو الحلقة والخيط، الحلَقة تكون في اليد، والخيط قد يُعلق علىٰ البدن، قد يعلق في السيارة، قد يُعلق في البيت، وأيضًا مثله مثل السَّير الذي يتحزَّم به الإنسان أو مثل القَيد الذي يُجعل في القدم، كل هذه الأشياء التي في معنىٰ الحلَقة والخيط كلها في الحُكم مثل الحلقة والخيط.

قال: (لِرَفْعِ البَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ)؛ يعني أنه يكون من الشرك إذا كان لرفع البلاء بعد نزوله أو دفعه قبل نزوله؛ لأن عندنا الرفع والدفع، الرفع بعد نزول البلاء، يعني إذا نزل الإنسان البلاء، والبلاء يشمل المرض، يشمل المصائب، يشمل السحر، يشمل العين، يشمل أشياء كثيرة؛ أي بلاءٍ يدخل تحت هذا، فإذا وقع بالإنسان بلاء، وقع به عين أو سحر أو مرض أو حلَّت به مصيبة، فلبس هذه الحلقة أو الخيط لرفع هذا البلاء عن نفسه، هذا يسمىٰ رفع البلاء، يعني: إزالة البلاء بعد حدوثه، وأما الدفع فهو قبل الحدوث، يعني يتخذ هذا السوار أو هذه الحلقة أو هذا الخيط؛ لئلا يصيبه مرض أو لا تصيبه عين أو يصيبه سحر أو لئلا تقع عليه مصيبة إلىٰ غير ذلك، فهذا رفع ودفع.

إذن الحكم يتعلق برفع البلاء أو دفعه، لكن إذا لبس هذه الحلقة أو الخيط ليس لهذا الغرض؛ إما لحاجة إلىٰ ذلك، كأن يحتاج مثلًا إلىٰ أن يُضيق الكُم يضعه عليه، فهذا لا يدخل في الحكم، أو كان وضعه للزينة إذا لبس حلقة للزينة هذا لا يقع عليه في هذا الحديث، لكن هذا تتعلق به الأحكام الشرعية الأخرىٰ، يعني الأحكام الشرعية قد يكون الشيء مشروعًا وقد يكون غير مشروع، قد يكون جائزًا وغير جائز، لكن لا تعلُّق له بالشرك.

إذن الشرك إنما هو إذا كان لرفع البلاء أو دفعه، فهذا هو الذي تعلق به الشرك، وقوله: (مِنَ الشِّرْكِ) هذا ظاهر تراجم ما ذكره المؤلف -رحمه الله- في مسائل التوحيد وهو الذي عليه عامَّة الشُّراح، أن الشرك هنا يراد به الشرك الأصغر ولا يُراد به الشرك الأكبر، وهذا يقصدون به الأصل؛ أي من لَبِس هذه الأشياء لرفع البلاء ودفعه فإنه يكون واقعًا في الشرك الأصغر، لكن لو أنه اعتقد أن لهذه الحلقة أو هذا الخيط تأثيرًا استقلاليًّا فإنه يكون مشركًا شركًا أكبر، يكون مشركًا شركًا أكبر في الربوبية وفي الألوهية؛ أما الربوبية فلأنه اعتقد أن هناك مع الله أحدًا في تدبير الملك، إذا قيل إن هذه الحلقة تستقل بالتأثير فتدفع عن الإنسان هذا البلاء أو هذه المصيبة أو ترفع عنه هذا المرض أو السحر أو العين أو نحو ذلك، فمعناه أن هذه الحلقة أو الخيط هذه تُدبِّر وتُدير، إذن هذا شرك في ربوبية الله، وأيضًا هو شرك في الألوهية؛ لأن قلبَه تعلق رجاءً وطمعًا في هذا المخلوق، الذي هو الحديدة أو الخيط أو نحو ذلك، وتَعلمون أن الرجاء لا يكون إلا في الله وحده لا شريك له، من الخوف والرجاء والرغبة والرهبة هذه لله -عز وجل-، هذه أنواع العبادة.

إذن فتعلُّق القلب بهذه الحديدة بأن تدفع عنه البلاء، معنىٰ ذلك أنه توجه قلبُه إلىٰ مخلوق فأنزل فيه رجاءه ليكشف عنه هذا البلاء، وهذا هو حقيقة شرك الألوهية؛ لأن الرجاء عبودية قلبية لا تجوز أو لا يجوز صرفها لغير الله، وإنما هي حقٌّ لله -عز وجل-، ومن هنا كان شركًا أكبر في الربوبية وفي الألوهية هذا إذا اعتقد أنها مستقلة بالتأثير، لكن إذا اعتقد أنها سبب من الأسباب، فهنا يأتي الكلام عليها من جهة كيفية كونها شركًا أصغر.

العلماء -رحمهم الله- يقولون إنها كانت شركًا أصغر من عدة جهات:

أحدها أن هذا الذي لبس الحلقة أو الخيط لدفع البلاء أو رفعه، قد جعل هذه الأشياء أسبابًا وهي في حقيقتها ليست أسبابًا شرعية ولا قدَرية، ولتوضيح الأمر علىٰ وجهٍ مختصر، الأسباب يُنظر لها من الجهة الشرعية والكونية القدَرية التي تتعلق بالتجربة والحسِّ، يقصدون بها، يقصدون أنها تتعلق بالتجربة والحس، الأسباب: هناك أسباب مشروعة وأسباب غير مشروعة، فليس كل سبب قدري يجوز شرعًا، لكن كل سبب شرعي فهو جائز شرعًا وأيضًا هو من قدَر الله -عز وجل.

ونضرب لذلك بعض الأمثلة التي توضح المعنىٰ، عندنا مثلًا قول النبي -عليه الصلاة والسلام-: «خيرُ ما تَداويتُم به الحجامةُ»، هذا سبب شرعي؛ لأن الشارع أذن فيه وهو أيضًا سبب قدري؛ لأنه طريق من طرق الدواء والعلاج.

عندنا مثلًا قول الله -عز وجل-: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] هذا سبب للشفاء من الأمراض، يعني يرفع البلاء بعد نزوله، وعندنا مثلًا قول النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- كما ثبت في الصحيح: «مَنْ قالَ لا إلهَ إلاَّ اللَّه وحْدهُ لاَ شَرِيكَ لهُ، لَهُ المُلْكُ، ولَهُ الحمْدُ، وَهُو عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، في يَوم مِئَةَ مَرَّةٍ؛ كانَ كَمَنْ أَعْتَقَ عَشْرَ رِقابٍ، وكُتِبَتْ له مِئَةُ حَسَنَةٍ، ومُحِيَتْ عنه مِئَةُ سَيِّئَةٍ، وكانَتْ حِرْزًا له مِنَ الشَّيْطانِ يَومَهُ ذلكَ»، فقوله: «وكانَتْ حِرْزًا له مِنَ الشَّيْطانِ يَومَهُ ذلكَ» هذا في دَفع البلاء عن الإنسان قبل حدوثِه وما تَكون من وساوس الشيطان ونحوها؛ لأنها من البلاء، فهذا سببٌ شرعي وهو أيضًا في الوقت نفسه سبب قدري؛ لأن السبب الشرعي يكون قدريًّا؛ لأن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- لا يمكن أن يُحيلَنا علىٰ شيء لا يَقع، إذا أمرنا بوقوعه فمعناه أن النتيجة تترتب قدرًا، فهذا سببٌ شرعيٌّ قدريٌّ.

وهناك أسبابٌ شرعية مثلًا صلاة الاستسقاء، صلاة الاستسقاء: طلب السُّقيا من الله عند قحوط المطر؛ فقحوط المطر هذا من البلاء، فصلاة الاستسقاء أو الدعاء استسقاءً هذا سبب شرعي من الأسباب الشرعية التي أذن الله -عز وجل- بها.

هناك أسباب كَوْنية لكن بعضها غير مشروع، وبعضها مشروع، المشروع ما تقدم ذكره، لكن هناك أسباب قدرية وهي غير مشروعة، مثلًا: من المعلوم أن الأكل يُذهب الجوع، لكن لو أن إنسانًا قال سآكل لحم خنزير، نقول هذا دفعُ الجوع، هو إذا أكل الخنزير شبع كونًا، ولكنه من ناحية الشرع، السبب الشرعي هذا مُحرم، من ناحية السبب الشرعي هو محرم لا يجوز، مثله أيضًا شرب الخمر لدفع العطش، مثله أيضًا استماع الأغاني مثلًا عندما يشتغلون في علم النفس وأنها تدفع أحيانًا عن الإنسان بعض الوساوس والهمِّ، قد تدفع عنه، لكنها سبب محرم شرعًا، هي سبب محرم شرعًا.

إذن السبب الكوني قد يكون جائزًا مثل ما تقدم، ومثل أيضًا الآن كثير من العلاجات والأدوية، كثير منها مجرَّب وظاهر وواضح يعني ليس في الخفاء، ومجرب وثبت طبًّا أو من أهل الخبرة أنه سبب للشفاء من الأمراض، فهذا سبب كوني، وهو داخل تحت عمومات الشريعة في التداوي، وأيضًا مثلًا الآن الأشياء في الأجهزة المرورية مثلًا، أن الحزام مثلًا حزام السيارة سبب بإذن الله أنه يمنع الإنسان من تعاظم الكارثة لو وقعت عليه، هذا سبب من الأسباب كوني، يعني ما نزل في خصوصه شرع، لكنه بالتجربة عند أهل المعرفة ثبت أنه بإذن الله -عز وجل- يمنع كثيرًا من الأضرار التي قد تصيب الإنسان، هذا سبب كوني وهو ليس محرمًا شرعًا وإنما هو داخلٌ في باب الأمور الجائزة أو المشروعة علىٰ وجه العموم.

إذن هذه أسباب؛ أحيانًا يكون السبب قدريًّا مشروعًا، يعني جاء في خصوصه دليل، وأحيانًا يكون داخلاً تحت الأدلة العامة، وأحيانًا يعني يكون السبب قدريًّا ولكنه محرم شرعًا، يعني مثل ما ذكرنا من شُرب هذه، أو مثلًا عند المصائب، يعني عند المصائب بعض الناس إذا وقعت المصائب ما يرتاح قلبه إلا أن يرفع الصوت ويشق الجيب ويلطِم الخدود، حتىٰ فيما يزعم يذهب عنه أثر المصيبة، هذا قد يحصل لبعض الناس ولكنه منهي عنه شرعًا.

إذا عرفنا هذا السبب القدَري والسبب الشرعي، نأتي إلىٰ لُبس (الحَلْقَة وَالخَيْطِ، وَنَحْوِهِمَا)، هل هي أسباب شرعية أو كونية؟

السبب طبعًا الكوني -كما قلنا- تُدار عليه الأحكام التَّكليفية: هل هو جائز أو مباح أو محرم؟ لكن إذا عرفنا أنه سبب كوني لكنه من حيث الشرع هو محرم، بِحكم الشرع عليه أنه محرم مع ثبوته كونًا ينتفي فيه باب الإشراك ويتعلق فيه باب الحُرمة فقط، لا يتعلق به شيء من الإشراك؛ يعني إنسان مثلًا -كما قلنا- أكل لحم ميتة أو خنزير أو من اللحوم المحرمة، لحوم السباع وغيرها، أكل هذه اللحوم، هو حين أكلها حصل له الشبع، فهو من ناحية القدر أو الكون أو الحس حصل له شبع، وصار سببًا لشبعه بأكل هذه الأشياء، لكنه من الجهة الشرعية هو محرم، حين ثبت أنه سبب قدري ومحرم تحريمًا شرعيًّا انتفىٰ عنه أن يكون شركًا بالله -عز وجل- ولهذا يقول العلماء في الأسباب:

إن السبب من الأسباب لابد أن يكون سببًا شرعيًّا أو قدريًّا، يعني لا يفعل الإنسان من الأسباب إلا ما كان سببًا شرعيًّا أو قدريًّا.

والثانية: ألا يعتمد علىٰ السبب، أن يعتمد علىٰ الله -عزَّ وجلَّ-.

والثالثة: أن يعلم أن هذه الأسباب جاريةٌ بأقدار الله، بمعنىٰ أن هذا السبب وإن كان سببًا فعليًّا لكن قد ينفع الله -عز وجل- به فلانًا ولا ينفع به فلانًا، وأنتم ترون أن الأدوية وغير الأدوية؛ هذا ينتفع به وهذا لا ينتفع به، هذا ينتفع به مع أن المرض واحد، لكن هذه الأسباب تجري بقدر الله، بمعنىٰ أنك لا تنزع عنها قدر الله، بل تجعل هذه الأسباب مرتبطة بقدَر الله، فما شاء الله -عز وجل- منها أتَمَّه، وما لم يشأِ الله -عز وجل- لم يُتمه، هذه الأشياء -كما قلنا- ينبغي التَّنبه لها في باب الأسباب.

لُبس الحَلْقَة وَالخَيْطِ يُنظر لها: هل هي سبب شرعي؟

لا، ليست سببًا شرعيًّا.

هل هي سبب قدري؟

لا، ليست سببًا قدريًا.

إذن ما هي؟ هي سبب لا شرعي ولا قدري، وما كان من الأشياء هكذا فإنه يكون محرمًا، هي ليست سببًا شرعيًّا ولا قدريًّا، يكون محرمًا ولكن هذا التحريم يرتقي إلىٰ درجة الشرك؛ لأنهم يقولون: إنما كان شركًا لأنه جعل ما ليس بسبب -شرعًا ولا قدرًا- سببًا، فالذي لِبس هذه الحلقة يقال له هل هذا ثابت شرعًا؟ يقول لك: لا، بل هو منهي عنه كما عندنا، هل هو ثابت قدرًا؟ ليس بثابت قدرًا، إذن فلبسُها شرك بالله -عز وجل-؛ لأنها حينئذٍ لا تكون سببًا وإنما هي سبب متوهَّم، وليست بسببٍ حقيقةً، ولذلك كل ما كان من الأسباب هكذا ليس سببًا شرعيًّا ولا قدريًّا، فإنه يكون شركًا. لماذا؟

لأنه جعل ما ليس بسبب سببًا، ولأنه في هذه الحالة يلتفت قلبه إلىٰ غير الله، فيكون في قلبه شُعبة من شُعب الشِّرك بالله -عز وجل-، وهذا طبعًا إذا كان لَبس هذه الأشياء لا علىٰ جهة التأثير -كما قلنا- وإنما علىٰ جهة السببية، أما إذا كان علىٰ جهة التأثير فهو شرك أكبر، فإذا لبس هذا الشيء علىٰ اعتقاده أنه سبب فقط، فيقال له هذا ليس بسبب لا شرعًا ولا قدرًا، وعندئذٍ يكون شركًا بما يتضمنه ذلك من الْتفات القلب إلىٰ غير الله -عز وجل-، وعندئذٍ يكون في القلب طائفة من الإشراك بالله -عز وجل-، بما فيه من التعلُّق بالمخلوق، فكان من هذا الباب شركًا أصغر، وإنما لم يحكموا عليه بأنه شرك أكبر؛ لأنه ليس فيه ما يناقض أصل التوحيد.

وأيضًا ذكر بعضهم: أنه لم يحكم عليه بأنه شركٌ أكبر؛ لأن النص الذي سيأتي -إن شاء الله- في حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- في باب ما جاء في الرُّقىٰ والتَّمائم: «إنَّ الرُّقَىٰ والتَمائِمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ»، وقالوا: إن الشرك إذا تجرد من الألف واللام فجاء بصيغة النكرة فإنه يراد به الشرك الأصغر، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في كتابه "الاقتضاء"، ذكر أن الشرك إذا كان علىٰ وجه التنكير فإنه يكون شركًا أصغر، لكن طبعًا هذا مع عدم اعتقاد التأثير، لكن إذا اعتقد التأثير فإنه يكون شركًا أكبر مُخرجًا من الملة، إذا اعتقد استغلال هذا السبب للتأثير.

بهذا لعله -إن شاء الله- تتضح صورة هذه المسألة ويقاس علىٰ غير هذا مما لم يذكره المؤلف ما هو منتشر عند كثير من الناس، بعض الناس يضع في سيارته مثلًا سورة الكعبة مكعبة ليس وضعها من النظر إليها ولا الزينة، وضعها لأجل أنها تدفع عنه البلاء، أو وضع آياتٍ، مثلًا جلدًا أو منقار طير لدفع الأشياء أو وضع

مثلًا عنده أشياء محنطة يزعم أنها تدفع البلاء عن بيته أو عن زرعه أو عن أهله، كل هذه الأشياء داخلة في هذا، حتىٰ لو لبس ساعة اعتقد أنها تدفع البلاء هذه الساعة، كان مشركًا.

هذا هو باب من الشرك (لُبْسِ الحَلْقَةِ وَالخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ البَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ).

قال الإمام -رحمه الله- الله: وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

طبعًا هذه الآية في الشرك الأكبر: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ لأن دعاء غير الله سواء دعاء مسألة أو دعاء عبادة كله شرك أكبر، فهذه الآية في الشرك الأكبر: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾، إذا كانت في الشِّرك الأكبر فدلالتها وقلنا تعليق الحلقة والخيط من الشرك الأصغر إذا كانت أسبابًا، فوجه ذلك أن المؤلف استدل بهذه الآية كما كان السلف يستدلون بما نزل في الشرك الأكبر علىٰ الشرك الأصغر، بجامع التعلُّق بغير الله -عز وجل-؛ لأن الشرك الأصغر فيه نوع من التعلق بغير الله والشرك الأكبر كذلك فيه تعلق بغير الله -عز وجل.

والثانية أيضًا بأن الاستدلال بهذه الآية علىٰ مراد المؤلف: أنه قال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، والمدعو من دون الله أنواع: الملائكة والأنبياء والصالحون والأشجار والأحجار والأخشاب، إلىٰ غيرها كلها تُدعىٰ من دون الله، والشمس والقمر كلها تُدعىٰ من دون الله، تعبد من دون الله -عز وجل-، فإذا كانت هذه الأشياء مع أن بعضها مما له مقام عند الله -عز وجل- كالأنبياء والأولياء والملائكة والصالحين هذا لهم مقام عند الله، وبعضهم فيه من القوة والقدرة كالملائكة ما هو معلوم، ومع ذلك نفىٰ الله -عز وجل- أن يملكوا لأحد نفعًا أو ضرًّا كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، والآية الأخرىٰ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

انتبهوا قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ هذا دليل علىٰ ما تقدم قبل قليل من أن هذه الأسباب يجب أن نجريَها تحت قدَر الله؛ لأنه قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، ﴿وَإِن يُرِدْكَ﴾ يعني: تحت إرادة الله، متعلقة بقدر الله -عز وجل-، إذن فتجري هذه الأسباب كما قلنا تحت قدر الله -عز وجل.

إذن قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾، طبعًا الجواب فيها معلوم لا أحدَ يملك ذلك؛ لأن الله قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

إذن لا أحد يملك ذلك مطلقًا، والمشركون مقِرُّون بذلك، لأن ذلك يتعلق بتوحيد الربوبية، إذن ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾، إذا كانت الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحون هم داخلون تحت "لا يملكون لأحدٍ نفعًا ولا ضرًّا"، فكيف يكون ذلك للحلق والخيط والجمادات التي لا تتصرف أصلًا وليس لها عقل تعقل ولا حياة تحيا بها، فكيف تتصرف؟

إذن هذه الآية إذا كان هؤلاء بهذه المثابة والمقام عند الله ومع ذلك لا يملكون تصرفًا وهم أقوىٰ من هذه الأشياء الموجودة؛ لأنهم لهم إرادة وحياة وقدرة، فكيف بهذه الأشياء تُتخذ وتصنع ليُعتقد فيها أنها تدفع البلاء عن الإنسان أو سبب لدفع البلاء عنه.

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: كافيني الله -عز وجل-، ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وهذا ختام الآية مهم؛ لأن قوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ إبطال لشرك المشركين، لماذا؟ لأن الذي ينفع ويضُر، إذن هو المستحق -جل وعلا- العبادة، يعني ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ هو الذي يكفيني هذه الشرور والآفات ويجلب لي الخير والنفع، وهذه الأشياء التي تُعبد من دون الله لا تملك ذلك، إذن فعبادتها عبادة باطلة، وأيضًا في هذه الآية كما قلنا آخرها أيضًا قال: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، فدلَّ ذلك علىٰ أن الاعتقاد في هذه الأشياء مثل الخيط والحلقة هذا ينافي التوكل علىٰ الله -عز وجل-؛ لأن الأسباب المشروعة هي التي تدخل في التوكل؛ لأن التوكل هو اعتماد القلب علىٰ الله مع فعل السبب المشروع أو المأذون فيه شرعًا، أما هذه ليست أسبابًا أصلًا، ففعل هذه الأشياء منافٍ للتوكل علىٰ الله -عز وجل-، والتوكل علىٰ الله -عز وجل- عبادة من العبادات، ولهذا كان في فعلهم هذا إشراك بالله -عز وجل.

إذن: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ فيها إبطال التعلُّق بهذه الأشياء مثل الحلقة والخيط، لأنه إذا لم يصح ذلك في حق الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين، فمن دونهم فهو أولىٰ بذلك.

والثانية فيه أن هذه الأشياء نوع من الإشراك بالله -عز وجل-، لماذا؟ لأن الله -عز وجل- ختم الآية بقوله: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كما سبق وبينًّا دلالتها علىٰ ذلك -والله أعلم.

ثم ذكر حديثَ عمران بن حصين: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ. فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟» قَالَ: مِنَ الوَاهِنَةِ. فَقَالَ: «انْزِعْهَا، فَإِنَّهَا لَا تَزِيْدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فإنَّكَ لوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحَتَ أَبَدًا». رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ).

حديث عمران هذا صحَّحه ابن حبان والحاكم وحسنه البوصيري في "مصباح الزجاجة" وإن كان في "إتحاف المهرة" قد انتقد الحاكم في تصحيحه لهذا الحديث، وهذا الحديث من رواية مبارك بن فضالة عن الحسن عن عمران بن الحصين، والأئمة الكبار كيحيىٰ بن معين وأبي حاتم وعلي بن المديني ونحوهم لا يرون أن الحسن سمع من عمران بن الحصين، فالإسناد فيه انقطاع، وأيضًا فيما أذكر أن الحديث أيضًا له علَّة بالوقف -والله أعلم-، لكن معنىٰ الحديث ليس فيه ما يخالف الشريعة بل هو مما يوافقها، والذي روىٰ عن عمران بن حصين هو الحسن البصري وهو إمام من الأئمة التابعين وأدرك عمران بن حصين إدراكًا بيِّنًا، ولما مات عمران كان له من العمر نحوٌ من ثلاثين سنة، وكانوا جميعًا في البصرة، من هنا طائفة من أهل العلم رجَّحت أنه سمع منه، وهذا ما ذكره الحاكم في مستدركه: أن أكثر مشايخنا صحَّحوا سمعه؛ أي فيه خلاف في الحديث؛ أي من الأحاديث التي يحصل فيها اجتهاد.

هنا ننبِّه علىٰ نقطة نذكرها لأنها مهمة، وهي ما يتعلق بتصحيح الأحاديث التي أوردها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في هذا الكتاب، يعني نذكرها؛ لأن بعض الناس قد لا يكون عنده تصور في إيراد أهل العلم للحديث، وهذا ليس خاصًّا بالشيخ محمد بن عبد الوهاب وإن كان جرىٰ علىٰ سنن من قبله، لكن حتىٰ في كتب أهل العلم موجودة واستعملها الأئمة الكبار، الأحاديث الموجودة في كتاب "التوحيد" هي علىٰ ثلاثة أقسام:

قسم مقطوع بصحته ومتفق عليه، وهذا كثير منه، كما في الصحيحين. أو هناك حديث قد لا يكون في الصحيحين ولكنه صحيح.

وقسم محل اجتهاد بين العلماء في التصحيح والتضعيف، وهذا جُلُّ الأحاديث التي انتُقد الشيخ محمد فيها من هذا الباب، بل وهناك حديث -يمكن واحد فقط- هو الذي لم يسبق الإمام وأنا أتحفَّظ عليها، يعني؛ لأني بعد ذلك وقفتُ علىٰ حديث لم يُصحح أو ذكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولم يصحح هذا الحديث، الشيخ سكت عنه ولم يصححه بل هو ضعيف، لكن علىٰ كلٍّ: فيه الصحيح وفيه مختلف فيه، والمختلفُ فيهِ

درجاتٌ، يعني ليس كل حديث أورده الشيخ محمد بن عبد الوهاب يكون أو يرىٰ هو صحته، لا، ما يلزم، يمكن يرىٰ أنه ضعيف لكن الضعيف يُورَد أولاً لكونه أحيانًا مفسِرًا للقرآن ولا يخالف ظاهر القرآن، بل ظاهر القرآن دالٌّ عليه، هذا دلالة القرآن باللسان العربي هكذا، فيكون هذا الحديث الذي ذُكر معه لا يعارضه أصلًا ولا يخالفه، بل هو يشرح معناه ويبينه، فهو كما تُبين القرآنَ بلغة العرب، وهذا لا إشكال فيه، وهذا كثير حتىٰ عند أئمة السلف المتقدمين من المفسرين الذين يذكرون الأحاديث بأسانيدهم يوردون هذه الأشياء ولا تضر.

ثانيًا: قد يكون هذا الحديث المذكور له شواهد تعضده، قد يكون الشاهد مذكورًا وقد لا يكون مذكورًا في الكتاب لأن الكتاب مختصر.

والثالث: قد تكون المسألة التي يدل عليها أصولُ الشريعة شاهدةٌ لها، وهذا أيضًا واضح في الكتاب، ولهذا نقول كتاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهو طبعًا لا تستطيع أن تجعل العلماء كلهم علىٰ ما أراد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، هذا لا يدعيه الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولا يدعيه أهل العلم للشيخ محمد بن عبد الوهاب وليس كل أهل العلم ممن يجلُّون الشيخ ويعظمونه يوافقونه علىٰ ما ذكره من هذه الأحاديث، مثلًا هذا حديث وقال رواه أحمد بسند لا بأس به، طائفة من العلماء وافقته وطائفة خالفته، هو اختار أحد القولين، وعامة ما ينقله الشيخ من ابن رجب أو من ابن تيمية أو من النووي الأحكام هذه أصلًا موجودة، غالبها أو جلها أو كلها أخذها من ابن سماك يعني ما حكم عليها بنفسه.

فالشاهد أنه ما من حديث ضعيف أو ليس هناك ضعيف ذكره الإمام محمد بن عبد الوهاب أصلًا أو بنىٰ عليه أصل في هذا الكتاب، وهذا هو الكلام في هذه النقطة، أما ما سواها إيراد الأحاديث ولو كانت هي ضعيفة ولو لم يحكم عليها قط، هو يرىٰ، لا نقدر أن نجزم ونقول إن الشيخ محمد يرىٰ صحتها وضعفها، ولكن نقول هو أورد الحديث لكن كيفيةُ إيراده لهذا، هل هو يستدل به علىٰ أصل؟

ليس في الكتاب شيء من هذا أبدًا، والذي يقول هذا لا يعرف كتاب "التوحيد"، لكن أورده كعاضدٍ لغيره، أو أورده لأنه له عواضد أخرىٰ أو أورده لأن كلام السلف مجتمع عليه، أو أورده لأنه يوافق ظاهر القرآن وأصول الشريعة، كل هذه الأحاديث هو الذي يوردها علىٰ هذه الشاكلة، لكن كأصل استدل عليه بحديث لا يثبت، هذا ليس بصحيح، قد يكون هناك حديث لا يثبت لكن الآية دلت علىٰ الأصل، علىٰ هذا الأصل وهذا موجود، ما نستطيع نفيه ونقول كل الأحاديث صحاح، ما نستطيع ولا أحد يدعيها أصلًا، وحتىٰ الشيخ سليمان بن عبد الله وهو حفيد الشيخ ومن أبرز علماء الدعوة النَّجدية وهو محدثها، هو محدث الدعوة النجدية هو

الشيخ سليمان بن عبد الله وقد مات شابًّا، يعني مات وله اثنان وثلاثون سنة أو أربع وثلاثون سنة، صاحب كتاب "تيسير العزيز الحميد"، وهو عالم ومحدِّث كبير، وكان يذكر عن نفسه أنه يعرف رجال الحديث أكثر من معرفته بأهل الدرعية التي هي موطنه، وكلامه وتعليقاته وتخريجاته للأحاديث ونظره فيها وفي عللها في "تيسير العزيز الحميد" هذا واضح أنه إمام في هذا الفن وعلامة.

وفي شرحه "تيسير العزيز الحميد" قد استدرك علىٰ جدِّه، إما مثلًا حديث الشيخ رواه أو ذكره وليس بهذا اللفظ يعني يفترق في اللفظ، يقل أو يكثر أحيانًا، أو مثلًا الشيخ عزَاه ووهِم في عزوه للحديث مثلًا، أو استدرك علىٰ الشيخ شيء ما ذكره وفيه ما هو أصح منه، فهذا ذكره الشيخ سليمان.

إذن فالشيخ سليمان هو حفيد الشيخ وابن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن عبد الله وهو أكبر من عبد الرحمن بن حسن وكان له مقام كبير الشيخ عبد الله، حتىٰ بعضهم يفضله علىٰ الشيخ عبد الرحمن بن حسن، لكن الشيخ عبد الرحمن بن حسن كان له مقام في الدعوة؛ لأنه طال عمره وكان له في الدعوة وخاصة بعد رجوع الدولة السعودية الثانية كان له مقام كبير بعد عودته من مصر –رحمة الله علىٰ الجميع.

الشاهد: أن سليمان ورث العلم عن أبيه عن جده وعن مشايخ الدعوة الآخرين واستدرك علىٰ جده في كتابه، وأئمة الدعوة يعظمون ويجلون كتاب "تيسير العزيز الحميد" ويوصون به وهو أفضل شرح لكتاب "التوحيد" إلىٰ يومنا هذا، والعلماء يحيلون عليه ومنهم الأئمة ولم يتكلم أحد منهم في الشيخ سليمان بن عبد الله، لماذا يقال هذا الكلام؟ لأمور:

الأمر الأول: ما مِن عالم إلا ويُؤخذ من قوله ويُرد إلا النبي –عليه الصلاة والسلام–، فما بالنا لا نأخذ أحيانًا بقول أحمد ولا بقول مالك ولا بقول الشافعي؟ لأن الاعتبار بسنة النبي –عليه الصلاة والسلام.

الثانية: أن مِن أعظم ما ذكره الشيخ في كتابه هذا، المسائل المتعلقة بالغُلو، ومنها الغلو في الأشخاص؛ فكوننا نغلو نقول كلها صحيحة، ممكن ننسب للنبي –صلىٰ الله عليه وسلم– شيئًا نعتقد نحن أن النبي –صلىٰ الله عليه وسلم– ما قاله، هذا غلو في الشيخ محمد بن عبد الوهاب لا يرتضيه ولا يرضاه الشرع قطعًا.

وثالثها: ليس من محبة الشيخ وتعظيم دعوته واعتقاد صحتها، أنه يوافَق في كل هذه الأحاديث ويقال إن كل ما صححه الشيخ محمد بن عبد الوهاب فهو صحيح ضرورةً، لا ليس بصحيح، ابنه يحبُّه نسبًا وديانةً "الشيخ سليمان" ومع ذلك انتقد عليه الحديث، هذه الأشياء يا إخوان لا بدَّ أن نهتم بها، لماذا؟ لأن بعض الناس عنده "حساسية" من أحد إذا قال هذا الحديث مثلًا في كتاب "التوحيد" لا يصح، قامت الدنيا وأقعدها،

السُّنَّة أحبُّ إلينا من كل الأحاديث، وهذه مسألة اجتهاد، فما كان من مسائل الاجتهاد سواءً في التصحيح أو التضعيف أو الأحكام كله يسوغ فيه الاجتهاد والحمد لله.

لأني سمعت البعض مثلًا، يعني سمعت الطرفين: طرف تكلم علىٰ أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه أحاديث ضعيفة وكلام يدل علىٰ عدم الخبرة بالكتاب الحقيقة، وهو من أهل التوحيد، ولكنه تكلم في الأحاديث في كتاب "التوحيد" كلام ليس كلام خبير به ولا عارف به، وإذا تكلم في كتاب "التوحيد" للشيخ محمد بهذه الصفة الذي تكلم بها، فمعنىٰ ذلك يتكلم في كتب السُّنَّة المتقدمة فيها أحاديث يراجَع "اللالكائي" ويراجع السُّنن التي قبل اللالكائي حتىٰ في كتب المتقدمين في كتب السنن وغيرها في أحاديث في مسائل الاعتقاد وغيرها فيها ضعف، إذا تكلم فيها، وتكلم فيها أئمة السُّنَّة الذين كتبوا في الاعتقاد كعثمان بن سعيد وكالبخاري -رحمه الله- وكالدَّارَقُطني، كتبوا في مسائل في الاعتقاد وفيها أحاديث ضعيفة لكن أوردوها لمعانٍ، الذي لا يفهم هذه المعاني هو الذي يتكلم علىٰ هذه الكتب بما لا يعرف، هذا طرف.

الطرف الثاني هجم علىٰ الطرف الآخر وجعله كأنه من المشركين، وجعله من أعداء الدعوة، هذا غلط يا إخوة، الإنصاف مطلوب والعدل مطلوب، هذا أخطأ؛ لأنه ما فهم كتاب "التوحيد"، والثاني أخطأ في الردِّ بالغلط، ما ينبغي هذا، الرجل الموحِّد ما تَهجم عليه هجومًا كأنك هاجم علىٰ واحد من الذين يدعون للشرك بالله -عز وجل-، لا هو موحد وأخطأ ما فهم كتاب "التوحيد".

إذن هذا الحديث -حديث عمران: (النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟» قَالَ: مِنَ الوَاهِنَةِ. فَقَالَ: «انْزِعْهَا، فَإِنَّهَا لَا تَزِيْدُكَ إِلَّا وَهْنًا»)، قوله: (فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ) الصُّفْر هو النحاس، وهذا يوافق التبويب الذي ذكره المؤلف باب لبس الحلقة، فقال له النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-:(«مَا هَذِهِ؟» قَالَ: مِنَ الوَاهِنَةِ) أي بسبب الواهنة، "مِنَ" هنا للسببية أي بسبب الواهنة، الواهنة: هو مرض يأخذ بالعضُد فيصيبه ضعفٌ، فيسمىٰ الواهنة، قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- «انْزِعْهَا»، يعني انزع الحلقة «فَإِنَّهَا لَا تَزِيْدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحَتَ أَبَدًا».

طبعًا هنا قال: «فَإِنَّهَا لَا تَزِيْدُكَ إِلَّا وَهْنًا»، الوهن قد يكون يَجمع بين أمرين: الحسي والشرعي؛ الحسي: الذي يتعلق بالأمور النفسية التي يضعُف معها الإنسان إذا تعلق بهذه الحديدة، فيحس بالوهَنِ، وهذا طبعًا معنىٰ ذَكره بعض العلماء لكنه قد يكون فيه بُعدٌ؛ لأن الذي يلبسها عادة ويعتقد فيها يأتيه نوع من النشوة يظن أنها ترفع

عنه المرض ومرضه ليس بحقيقي أصلًا، أحيانًا قد يكون غير حقيقي، لكن هنا: «فَإِنَّهَا لَا تَزِيْدُكَ إِلَّا وَهْنًا» يعني لا تزيدك إلا وهنًا في دينك؛ ولذا عقبه بقوله: « فإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحَتَ أَبَدًا».

بمعنىٰ أن هذه الحديدة لا تزيدك إلا وهنًا في دينك، وإذا مِتَّ وهذه الحديدة عليك فإنك ما أفلحتَ أبدًا، قالوا: ونفيُ الفلاح المؤبَّدُ يكون في حق المشرك، فدلَّ ذلك علىٰ أن لبس الحلقة علىٰ هذه الصفة، بمعنىٰ أنها يريد منها أن ترفع المرض الذي أصابه أن هذا من الإشراك بالله -عز وجل-، وأنها لا تَزيده إلا وهنًا في دينه.

قال: (وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوْعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيْمَةً؛ فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، ومَنْ تَعلَّقَ وَدَعَةً؛ فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ»)، هذا الحديث حديث عقبة بن عامر -رضي الله تعالىٰ عنه- قال المؤلف: وله أي للإمام أحمد -رحمه الله-، وحديث أيضًا صححه ابن حبان والحاكم وجود إسناده المنذري.

وذكر المؤلف -رحمه الله- له روايتان: الرواية الأولىٰ من رواية مِشْرح بن مهان عن عُقبة بن عامر، وفيه جهالة، والرواية الثانية من رواية دُخَين عن عقبة ودخين فيه قول والإسناد لا بأس به، فالروايتان تتعاضدان ويكون الحديث حسنًا وصحيحًا.

«مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيْمَةً؛ فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ»، يعني: من تعلق تميمة، التميمة ما هي؟ هي ما يُعلَّق علىٰ الإنسان أو علىٰ غيره لاتِّقاء العين أو المرض أو نحو ذلك كما سيأتي في الباب الذي يليه -إن شاء الله تعالىٰ-، «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيْمَةً؛ فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ»، يعني من تعلق تميمة يريد بها دفْع البلاء أو رفعه فلا أتم الله له مراده، فإذا تعلق هذه التميمة أو الودَعة من أجل دفع المرض فلا أتم الله له مراده، بل يبقىٰ فيه مرضه، وهذا إما أن يكون خبرًا من النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- بأن الله لا يُتم له مراده، بل يكون في مرض؛ لأن هذا استشفاء بغير ما أباحه الله -عز وجل-، والله -عز وجل- لم يجعل شفاء هذه الأمة فيما حرم عليها، وهو وإن شفي منه ظاهرًا لكن قد يُصاب بغيره من الأدواء؛ ولهذا العلماء يقولون: التَّشافي بالمحرمات: قد يأخذ هذا المُحرَّم ويُشفىٰ به من هذا المرض، لكن يُعقبه ذلك أمراضًا أخرىٰ؛ أي يجلب له أمراضًا أخرىٰ، وأعظم ذلك ما يصيب الإنسان من مرض الدين وهو أخطرها، وهو التعلق بغير الله -عز وجل-.

إذن: «مَنْ تَعلَّقَ وَدَعَةً» الودعة: شيء يستخرج من البحر لونه أبيض، يسمىٰ ودعة، هذه الودعة هي مثل الحلقة ومثل الخيط لا تنفع ولا تضر، ودعة ليست سببًا شرعيًّا ولا قدريًّا، والتميمة كذلك، واحدٌ علَّق جلدًا أو علَّق سلسالًا أو علق شيئًا لدفع البلاء أو رفْعه، هذه كلها لا تغني عن شيء كما مر قبل قليل، فالنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- إما يكون أخبر أن الله -عز وجل- لا يتم له الأمر ولا يجعله في راحة ودعة وسكون، أو يكون هذا

دعاءً من النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- عليه، أي من فعل ذلك فدعوة النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- عليه بهذا، بأنه لا يُتم الله له مراده ويدعو عليه أيضًا بأن لا يكون في دعة ولا راحة، وإنما كان ذلك لعُظم هذا الجُرم، لأن هذا الجرم جرم عظيم.

(وَفِيْ رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعلَّقَ تَمِيْمَةً، فَقَدْ أَشْرَكَ») وهذا شاهد في الحديث وهو ظاهر في أن لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء ودفعه أنه من الإشراك بالله؛ لأن التميمة تعلق من أجل دفع البلاء أو رفع البلاء.

ثم نختم بـ قال: (وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ) بن عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الحنظلي الرازي، وهو وأبوه إمامان في الحديث، أبوه الإمام الكبير أبو حاتم نظير الإمام أحمد -رحمه الله- وابن مَعِين وعلي بن المَدِيني وإسحاق بن راهَويه وجماعة من الأئمة الكبار الذين حفظ الله بهم سنة نبيه -صلىٰ الله عليه وسلم- ولهم قدمٌ في الإسلام مشهورة معروفة وابنُه عبد الرحمن هذا الابنُ البارُّ بأبيه ممن حفِظ الله به علمَ أبي حاتم، فكتابه "الجرح والتعديل" كثير منه أسئلةٍ لأبيه عن الرجال مع سؤاله لجماعة من العلماء، وكتابُه أيضًا "العِلل" هو أسئلة لأبيه ولأبي زُرعة الرَّازي، فهو حفظ الله به علم أبيه الذي لا يزال إلىٰ يومنا.

قال: (وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ؛ أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الحُمَّىٰ؛ فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾)، هذا الحديث روي من طرقٍ عن حذيفة -رضي الله عنه-، فهو حديث ثابت عن حذيفة من طرق وهو مُخرَّج عند أبي حاتم، كما هو مخرج عند ابن أبي شيبة وغيرهما.

إذن هذا ثابت من فعل حذيفة (أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الحُمَّىٰ؛ فَقَطَعَهُ) أي في يده خيط بسبب الحمىٰ، أي يريد أن يستشفي من الحمىٰ بهذا السبب وهو هذا الخيط، فحذيفة -رضي الله عنه- أنكرَه وقطعه، إنكار المنكر قد قدر عليه بيده دون أن يكون هناك مفاسد فقطعه، وإنما قطعه حذيفة -رضي الله عنه- ليبين أن هذا الفعل ليس كسائر المحرمات وإنما هو فعل عظيم؛ لأنه يرتقي فوق المحرمات الإشراك، (وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾)؛ فاستدلاله بهذه الآية يُبَيِّنُ أن هذا الفعل شرك بالله، فدل ذلك علىٰ أن تعليق الحلقة والخيط ونحوهما من الإشراك بالله، ودلَّ أيضًا علىٰ أن استدلال الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالآية في صدْر الباب وهي نازلة في الشرك الأكبر، أن هذا يوافق استدلال الصحابة؛ لأن حذيفة -رضي الله عنه- استدل بهذه الآية ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ وهي نازلة في الشرك الأكبر؛ أي وما يؤمن أكثرهم بالله، يعني بربوبيته إلا وهم مشركون في ألوهيته وهو الشرك الأكبر.

بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

{بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

قال المؤلف -رحمه الله تعالىٰ-: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمِ: فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا، أَنْ لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ، وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ «إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ».

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا؛ وُكِّلَ إِلَيْهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.

التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَىٰ الْأَوْلَادِ يَتَّقُونَ بِهِ الْعَيْنَ لَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، مِنْهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والرُّقَىٰ: هِيَ الَّتِي تُسَمَّىٰ الْعَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ؛ فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ.

والتِّوَلَةُ: هِيَ شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ الْمَرْأَةَ إِلَىٰ زَوْجِهَا وَالرَّجُلَ إِلَىٰ امْرَأَتِهِ.

وَرَوَىٰ أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ اسْتَنْجَىٰ بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ».

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رضي الله عنه قال: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ». رَوَاهُ وَكِيعٌ وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ؛ قَالَ كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ)}.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وأصحابه ومن اهتدىٰ بهداه، قال الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَىٰ وَالتَّمَائِمِ)، أي: ما جاء في الرُّقىٰ والتَّمائم من حُكمٍ؛ لأن المؤلف -رحمه الله- ذكر وإن كان جاء علىٰ وجه التفسير، إلا أنه ذكر أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- رخَّص في الرقىٰ من العين والحُمىٰ.

والرُّقىٰ: جمع رُقية، وتسمىٰ العُوذَة، والمقصود بذلك: ما يُستعاذُ به مما يقع علىٰ الإنسان من مرضٍ، أو عينٍ، أو سحرٍ أو نحو ذلك، فهذه رُقًىٰ، وهي عبارة عن أذكار وأدعية وكذا، يُستشفىٰ بها من هذه الأشياء؛ ولهذا الحافظ ابن حجر ذكر أن الرَّقىٰ كلام يُستشفىٰ به من كل عارِض، يعني من العين، من السحر ونحوهما.

والرُّقىٰ كانت معروفة قبل الإسلام، وأقرَّ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- منها ما لم يكن فيه شرك، يعني إذا كان بكلامٍ معلوم، وليس فيه شرك، فإن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قد أقرَّه، فقد عرض عليه عوف بن مالك رقًىٰ كان يرقون بها في الجاهلية، فقال: «لَا بَأْسَ مَا لَمْ يَكُنْ فِيها شِرْكٌ»، وهذا في صحيح مسلم.

وفي صحيح مسلم أيضًا أن آل عمرو بن حزم كانت عندهم رقية كانت تسمىٰ رُقية العَقرب؛ أي يُرقىٰ بها من العقرب، فعرضوها علىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- لما سمعوا كلام النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- في الرقىٰ، فقال -عليه الصلاة والسلام-: «لا بأس بها»، لماذا؟ لأنها ليست بها شرك، ولهذا ذكر الحافظ ابن حجر وتبعه عليه القَسْطلاني والسُّيوطي والزَّرقاني وآخرون، قالوا: ذكر ابن حجر أن الرقية جائزةٌ بالإجماع إذا استوفت ثلاثة شروط:

أحدها: أن تكون بكلام الله، أو بأسمائه وصفاته.

وبالكلام العربي والكلام المفهوم المعنىٰ.

وأيضًا إذا لم يعتقد الفاعلُ لها أنها مؤثرةٌ بذاتها.

فما كان بكلام الله، أو بأسمائه وصفاته، هذا جائز بالإجماع، وما كان بالكلام العربي المفهوم، وليس فيه شرك، ولا محرَّم، فجائز بالإجماع.

وما كان بكلام مفهوم المعنىٰ، فهو جائز بالإجماع، وأما إذا كان الكلام غير مفهوم المعنىٰ، كما يفعله بعضهم من التَّمتمات أو الكلام الذي هو حروف ولكن ليس له معنىٰ، فهذا لا يجوز، وأيضًا لو كان بالكلام غير العربي، فهذا محلُّ خلاف؛ من العلماء من يقول: لا يجوز الرقية إلا بالكلام العربي، ومنهم من قال بجوازها إذا كانت مفهومة المعنىٰ، وليس فيها شرك.

وليس فيه دليل يمنع من الرقيةِ بالكلام غير العربي، لكن العلماء مجمعون إذا كانت بالكلام العربي صحَّت وجازت.

ثم: أن يعتقد أنها غير مؤثرة بذاتها، يعني غير مستقلة بالتأثير، ولكنها سبب من الأسباب، إن شاء الله تعالىٰ أمْضاه، وإن شاء لم يُمضه، وإذا قلنا إنها مؤثرة بذاتها بمعنىٰ أنها تُعارض قَدَر الله، كأنه يُغالب قدَر الله، وكأنه يقدر مع الله -عز وجل-، وهذا شرك في ربوبية الله -جلَّ جلاله-.

فهذه الشروط التي ذكرها الحافظ ابن حجر، وهي ثلاثة شروط، نقلها أهل العلم في كتب كثيرة، كما ذكرنا قبل قليل، وأيضًا ذكرها شراح كتاب التوحيد، ومنهم الشيخ سليمان بن عبد الله -رحمه الله-.

هذه الرُّقىٰ -كما قلنا- جائزة بشروط، المؤلف -رحمه الله- ذكر هنا جملة من الرُّقىٰ التي هي محرمة أو هي شركٌ بالله -عزَّ وجلَّ-، ذَكر الأدلةَ علىٰ ذلك.

فأولاً: جاء في حديث أبي بشير الأنصاري -رضي الله عنه- قال: وفي الصحيح عن أبي بشير الأنصاري، وإذا أطلق العلماء كلمة "وفي الصحيح" يقصدون به: الصحيحين، أو يقصدون به صحيح البخاري فقط، أو صحيح مسلم فقط، فهذه الكلمة "وفي الصحيح" تعني أحد هذه الثلاثة.

طبعًا هذا قد يحصل للإنسان أحيانًا، يعني يجزم أن الحديث في الصحيح، في صحيح البخاري في صحيح مسلم، لكن ينسىٰ هل هو متفق عليه أو لا، فيقول:هو في الصحيح، وأحيانًا يكون الحديث في أحد الصحيحين فيُشكل عليه هل هو في البخاري في مسلم، فيقول: هو في الصحيح، وأحيانًا يذكرونها اختصارًا، لهم معانٍ في هذا.

قوله: "وفي الصحيح" هذه جادَّة مسلوكةٌ عند العلماء قبل الشيخ محمد بن عبد الوهاب بقرونٍ، قال: "وفي الصحيح" يقصد به هنا الصحيحين، صحيح البخاري، وصحيح مسلم.

(أنه كان مع رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً أن لا يَبقين في رقبة بعير قلادة من وتر، أو قلادة إلا قُطعت).

القلادة معروفة توضع علىٰ عنق الإبل، والوَتر هو ما يُربط طَرفي القوس: "هُنا القوس وفيه ما يُربط بين الطرفين، ثم يأتي السهم، أو النبل"، هذا الذي يُربط بين الطرفين هو عبارة عن جلدٍ أو نحوه، يربط طرفي القوس، كانت العرب إذا اخْلولق هذا الجلد أخذته وعلَّقته علىٰ الدوابِّ، ويقصدون بذلك دفعَ العين عنها؛ لأن المعلَّق قد يكون للزينة، وقد يكون علامة عليها لتُميزها عن غيرها، قد تكون علامة علىٰ المِلكية، لها معانٍ، لكن العرب في هذا الذي نهىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- عنه، كانوا يعلقون عليها الوترَ؛ لدفع العين عنها، وإلا فالنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- كان يَهدِي إلىٰ البيتِ ويقلِّد هديَه -عليه الصلاة والسلام-، تُقلد الجلود والنِّعال وغيرُها، تُعلَّق عليها حتىٰ تُعرف أن هذا هدْيٌ، فلا يعترضه أحد، وكان يَبعث بها من المدينة إلىٰ مكة، فيقلِّد -صلىٰ الله عليه وسلم- هديَه؛ هذا التقليدُ ليس لدفعِ العين، وإنما هو إعلامٌ بأن هذا هدْيٌ إلىٰ البيتِ، فلا يتعرَّض له أحد.

لكن العرب هنا كما قاله الإمام مالك وأبو عبيدة وغيرهم علىٰ هذا الحديث، أن العرب كانت تعلقُ هذه الإبلَ القلائدَ أو تُعلقها هذه القلائد من أجل دفع العين عنها، ومنها هنا النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أمر أنْ لا يبقين في رقبة بعير قلادةٌ من

وترٍ، "أو قلادة إلا قُطعت"، وهذا شكٌّ من الراوي، لكن ليس الحكم مخصوصًا هنا التي تكون من وتر، القلادة التي من وتر، بل تعم؛ لأنه لو أن إنسانًا علَّق عليها مثلاً حبلًا من ليفٍ أو حبلًا مصنوع مثلاً من البلاستيك، أو علق عليها عصىٰ أو علق عليها خِرقة أو علق عليها غير ذلك من أجل دفْع العين عنها، فهذا داخل في التمائم المحرمة؛ لأن هذا الحديث يتعلق بالتمائم، التمائم: جمع تميمة، والتميمة: هي شيء -كما سيأتي تفسيرها- تُعلَّق علىٰ الأولاد، ولا يقصدون به خصوص الأولاد، تعلق علىٰ الأولاد لدفع العين عنهم ولا يقصدون خصوص الأولاد وإنما يقصدون بذلك ما يعلق علىٰ الشيء، سواء كان هذا الشيء دابة أو ولدًا أو والدًا أو بيتًا أو سيارة أو نحو ذلك، عُلق عليه شيء لدفع العين سواء كان هذا المعلَّق وترًا أو كان كما ذكرنا أصنافًا من ذلك قبل قليل.

إذًا فالحديث هذا يتعلق بالتمائم، والتمائم هنا التي علقت لدفع العين عن هذه البهيمة لم يذكر أنه يكون مكتوب فيها شيء مسكوت عنه، فدل ذلك علىٰ أن التمائم تكون حتىٰ ولو لم يكتب فيها شيء؛ لأن التمائم نوعان: نوع يُكتب فيه ونوع لا يُكتب فيه، سيأتي -إن شاء الله- بعد قليل.

النوع الذي يُكتب فيه هو فيه رقية وفيه التميمة، جمع بين الأمرين، أما الذي مجرد التميمة يُعلق شيء ليس مكتوب فيه شيء، يعلق سلسال، يضع علىٰ نفسه خاتم لدفع البلاء كما قدمنا في باب ما جاء في لبس الحلقة والخيط.

إذًا هذا يُسمىٰ تميمة، فهذه الإبل علقت عليها التمائم من أجل دفع العين عنها، فالنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أمر أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة

إلا قُطعت، لماذا؟ لماذا قطع النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- وأمر بذلك؟ إلا لأن فيها معنىٰ محرمًا وإلا كانت من باب الإتلاف المنهي عنه، لكن هذا إتلاف علىٰ وجه شرعي، لماذا أمر النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- بإتلافها؟ لأن فيها معنىٰ محذورًا أو معنىٰ محرمًا، وبالتالي هذا المعنىٰ نأخذه من الأحاديث السابقة واللاحقة كما في حديث عقبة بن عامر الذي تقدم «من تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فقد أَشْرَكَ»، إذًا تعليق هذه التمائم من الشرك.

وقدمنا -فيما سبق- أن تعليق التميمة إن كانت من أجل أنها تستقل بالتأثير؛ فهذا شرك أكبر، وإن كانت من أجل أنها سبب فهذه أيضًا محرمة وشرك أصغر لما قدمناه من الكلام فيما يتعلق بالأسباب الكونية والشرعية، وأن من فعل ذلك فقد جعل ما ليس بسببٍ كونًا ولا شرعًا سببًا والْتفت قلبه به إلىٰ غير الله -عز وجل- وكان في قلبه شُعبة من الشرك؛ لأن القلب لم يلتفت بالكُلية ولكن كان فيه التفات، فكان فيه شُعبة من الشرك، فكان شركًا أصغر وليس شركًا أكبر مخرجًا من الملة، إذا اعتقد أنها غير مؤثرة بذاتها ولكنها سبب من الأسباب، وهذا سبق بيانه والكلام عليه.

ثم أتىٰ بحديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قال: «إنَّ الرُّقَىٰ والتَّمائِمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ»، هذا الحديث قال المؤلف: أخرجه أحمد وأبو داود من حديث يحيىٰ بن الجزار عن ابن أخي زينب امرأة عبد الله بن مسعود وهي زينب الثَّقفية عن عبد الله بن مسعود، إلا أن ابن أخي زينب ذكَر الحافظ بن حجر ولم يجزم به قال: كأنه صحابي، ويحيىٰ بن الجزار الذي روىٰ عنه روىٰ عن الصحابة والتابعين، فهو محتمل أن يكون صحابيًّا وأن يكون تابعيًّا وليس فيه توثيق،

ومن هنا فهذا الحديث في إسناده جَهَالة؛ جهالة ابن أخي زينب، ومثل هذا الجهالة تُغتفر أو لم تغتفر في هذا الموضع وقد صححه ابن حبان والحاكم وكان الحافظ بن حجر يقويه، لماذا؟

لأنه أولاً لو نظرنا إلىٰ الإسناد هو ابن أخي زينب عن عمته، عن عبد الله بن مسعود، يعني ابن أخي زينب وهو لم يكن معروفًا بالرواية، ولكن كونه يروي عن عمته هذا له خصِّيصةٌ، وهي روت هذا الحديث عن زوجها عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه–، فهو من رواية القُربىٰ ويُغتفر فيها ما لا يُغتفر في غيرها لاسيما وأنه لم يُتكلم فيه، وأيضًا هذا الحديث له شَواهد ومنها حديث عقبة بن عامر الذي تقدم، ومنها حديث ابن بشير الأنصاري والأحاديث السابقة واللاحقة، كلها دالة علىٰ معنىٰ هذا الحديث، ومنها أيضًا ما يأتي –إن شاء الله– في باب السحر، فإنه أيضًا يتعلق بالتِّولة.

إذًا هذا الحديث لا نَكارة في متنه، ثم إن ابن مسعود قد ثبت عنه أنه دخل علىٰ امرأته فرآها قد علَّقت خيطًا، فقطعه وقال: "إنَّ آلَ عبدِ اللَّهِ لأغنياءُ عنِ الشِّرْكِ"، وهذا ثابت عن ابن مسعود من حديث أبي عبيدة وغيره من طُرق، وهذا حديث موقوف علىٰ عبد الله بن مسعود –رضي الله تعالىٰ عنه–، ومثل هذا الموقوف قد لا يكون من باب القول بالرأي وإنما هو القول المُستند إلىٰ قول النبي –صلىٰ الله عليه وسلم– المتعلق بحكم شرعي، يعني حكمًا شرعيًّا، فيَحتمل هذا.

الشاهد: أن هذا الحديث سواءً كان مرفوعًا أو موقوفًا، فإن الموقوف ثابت عن ابن مسعود في قطع الخيط، والموقوف المرفوع هذا له شواهد.

قوله: «إِنَّ الرُّقَىٰ والتَّمائِمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ»؛ لأنه عندنا "إِنَّ الرُّقَىٰ" هل كلمة الرُّقَىٰ هذه من العام المخصوص أو العام الذي أُريد به الخصوص؟ العام الذي أريد به الخصوص يعني تأتي لفظُه لفظُ عام؛ لأن الرُّقىٰ هي الاسم دخلت عليه الألف واللام، اسم جنس دخلت عليه الألف واللام فعمَّ، حين أقول الإنسان يعم جميع الناس، حين أقول المؤمنون يعم جميع المؤمنين، عندنا "إِنَّ الرُّقَىٰ"، هل كل الرقىٰ شرك؟ تقدم لنا أنها ليست كلها شرك سواء في هذا أو في باب من حقق التوحيد، وذكر النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قال: «اسْتَرْقُوا لَها؛ فإنَّ بها النَّظْرَةَ»، وقال -صلىٰ الله عليه وسلم-: «مَن استطاع أن يَنْفَعَ أخاه فَلْيَفْعَلْ» في باب الرقىٰ قال -عليه الصلاة والسلام-، وكان -عليه الصلاة والسلام- يَرقي نفسَه ورقتْه عائشةُ -رضي الله تعالىٰ عنها-، وبيَّن -صلىٰ الله عليه وسلم- أن السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب أنهم لا يَسترقون، فدلَّ علىٰ أن من اسْترقىٰ فلا جُناح عليه، لكن الأكمل أن لا يطلب الرقية من غيره لنفسه، وتقدم معنا بعض الأحاديث التي تتعلق بالرقىٰ مثل حديث: «لا رُقيةَ إلَّا من عَينٍ أو حُمةٍ» إلىٰ غيره، أحاديث كثيرة فيها إثبات الرقية، هل نقول أن هذه شرك؟ لا، لكن حين يقول: «إِنَّ الرُّقَىٰ والتَّمائِمَ» محتمل أن يكون هنا لفظ عام أريد به بعض التمائم وليس كل التمائم.

مثل ما قال الله -جل وعلا-: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾، من القائل؟ فُسر بأنه نُعَيم بن مسعود، وفُسر بأنهم المنافقون، وفُسر بأنهم ركْب قابلوا أبا سفيان فأعطاهم ضمانًا علىٰ أن يُشيعوا ذلك عند النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- وأصحابه، إذًا هل هم كل الناس؟!

لا المنافقين كل الناس، ولا الركب كل الناس، ولا نُعيم بن مسعود كل الناس، فأطلق عليهم الناس، إذًا هو لفظٌ عام أريد به طائفة معينة، فهنا محتمل أن يكون «إنَّ الرُّقَىٰ والتَّمائِمَ» يعني: أن الرُّقىٰ المعهودة عند المشركين، هي الرقىٰ التي كان فيها شرك عند المشركين أنها محرمة؛ ولهذا ابن حبان والخطَّابي والبَيهقي وآخرون لما فسروا «إنَّ الرُّقَىٰ والتَّمائِمَ» جعلوها في الرقىٰ الشركية أو في الرقىٰ التي يُعتمد عليها، أو في الرقىٰ التي تكون بكلام غير مفهوم المعنىٰ؛ يعني ذكروا لها صورًا أو أحوالاً من الأحوال التي لا تجوز، فحملوا عليها قول: «إنَّ الرُّقَىٰ والتَّمائِمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ»، إذا قلنا إنه عام أريد به الخصوص، لكن لو قلنا إنه عامٌّ مخصوصٌ، يعني نأخذ بخصوصه ونقول إن الأصل في الرُّقىٰ الجوازُ إلا ما خصَّه الدليل، فإذا كانت الرقية فيها شرك فهي محرمة خصَّها الدليل، إذا كانت بكلام غير مفهوم خصها الدليل وهو الإجماع فإنها لا تجوز، إذا اعتقد أنها مؤثرة بذاتها أيضًا دلَّ الدليل المتواتر علىٰ أنها لا يجوز الاعتماد عليها، إذًا إن قلنا هكذا أو قلنا هكذا.

فقوله: «إنَّ الرُّقَىٰ والتَّمائِمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ»، عندنا اجتمع ثلاثة أشياء: «إنَّ الرُّقَىٰ» هذه أولاً وبيَّنَّا معنىٰ الرقىٰ، والمؤلف قال بعد ذلك هي التي تُسمىٰ العَزائم، يسميها الناس العزِيمة، العزائم جمع عزيمة والناس يسمونها إلىٰ عهد قريب ولا زال بعضهم يسميها العزيمة، ولا سيما ما كان منها يُكتب أو كان يُنفث في إناء، يسمونها عزيمة وهو موجود حتىٰ في البلدان الأخرىٰ، ويسمَّىٰ فاعل ذلك: الراقي أو المُعزِّم.

قال: (وخص منها الدليل ما خلا من الشرك)، يعني خص الدليل من قوله: الرقىٰ لأنها عامة، المؤلف يحملها علىٰ أنها لفظ عامٌّ خصَّ منها الدليل ما خلا من

الشرك، ما هو الدليل عليه؟ قول النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- «اعرِضوا عليَّ رُقاكُم لا بَأْسَ بها ما لَمْ يَكُنْ فيها شِرْكٌ»، فدلَّ ذلك علىٰ أن ما لم يكن فيه شرك منها فهو جائز.

قال المؤلف: (فقد رخص فيه رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- من العين أو الحُمَة)، بمعنىٰ أنه لو كان في الرقىٰ كلها شرك لما رخص النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- من العين، والعين معروفة والحمة كما تقدم هي ما يحصل من سم العقرب أو نحوها يسمىٰ حمة، إذًا هذه الرقىٰ، وتقدم.

ثم قال -رحمه الله-، قبلها ذكر التمائم، عرَّف التمائم، قال: (التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَىٰ الْأَوْلَادِ يَتَّقَونَ بِهِ الْعَيْنَ)، هذا ما يتعلق بالتمائم، ثم فسر وقسم التمائم إلىٰ قسمين سيأتي الكلام عليها.

إذًا التمائم هو عبارة عن شيء يُعلق علىٰ العين أو غيره من الأشياء؛ لدفع البلاء عن الإنسان، هذا يسمىٰ التمائم وهي جمع تميمة.

قال: (والتِّوَلَةُ)، التِّوَلَةُ شرحها المؤلف قال: (شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ الْمَرْأَةَ إِلَىٰ زَوْجِهَا وَالرَّجُلَ إِلَىٰ امْرَأَتِهِ)، وهذا التفسير طبعًا مرويٌّ عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- راوي هذا الحديث.

التِّوَلَةُ المقصود بها هنا: ما يتعلق بسحر العطف، التِّوَلَةُ يراد بها سحر العطف وسيأتي -إن شاء الله- في باب السحر، بمعنىٰ أن المرأة تضع لزوجها شيئًا من السحر يصرفُه إليها، أما إذا وضعت أشياء غير محرمة لصرف أنظار زوجها إليها من

لباسٍ أو طيبٍ أو زينةٍ ونحوها، هذا لا يدخل في التِّوَلَةُ، وإنما يُقصد به وضع الأشياء التي تصرف الزوجَ من سحر ونحوه.

قال: «إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ»، وهذا موضع الشاهد من الحديث؛ لأن الحديث الأول فيه الأمر بقطعها والنهي عنها، لكن الأمر بإتلاف الشيء أو النهي عنه لا يدل علىٰ أنه شرك.

حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- صرَّح بأنه شرك، وكلمة شرك هنا -كما ذكرنا سابقًا- شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في "الاقتضاء" يرىٰ أن ما كان مجردًا عن الألف واللام بل جاء علىٰ صيغة نكرة "شرك"، فإنه ماذا يكون؟ يُراد به الشرك الأصغر، وعلىٰ هذا التأويل يكون المراد أن الرقىٰ والتمائم والتولة شرك يعني "شرك أصغر" إلا في حالة ما إذا اعتقد أنها مؤثرة بذاتها، فبهذا خرجت إلىٰ نقضِ أصل الرُّبوبية أو نقض أصل توحيد الربوبية بالكُلِّية وكان شركًا مخرجًا من الملة، لكن الرقىٰ -كما قلنا- الرقىٰ والتمائم علىٰ قسمين أو التمائم قبلها فيها تفصيل أكثر، الرقىٰ علىٰ قسمين.

القسم الأول: أن يعتقد أن هذه الرقية مؤثرة بذاتها، فهذا شرك مخرج من الملة.

الثاني: ألا يعتقد، ولكن يعتقد أنها سبب من الأسباب، فهذه جائزة، أما إذا تضمنت شركًا في ذاته بمعنىٰ كان فيها دعاء غير الله، هذه الرقية مكتوب فيها: يا حسين، يا علي، يا كذا ارفع ما بنا من البلاء، هذا شرك أكبر مُخرج من الملة، أو كان في هذه الرقىٰ ما يفعله بعض المعزِّمين من مثلاً العدوان علىٰ الله -عز وجل- أو علىٰ رسوله -صلىٰ الله عليه وسلم- بالكلام والقبائح والاعتداء علىٰ القرآن، هذا

أيضًا كفر وشرك بالله -عز وجل-، لكن إذا لم يكن فيها شيء من ذلك وكانت خاليةً من الشرك، وكانت بالشروط المُستوفاةِ التي ذكرناها قبل قليل، إذا فعلها معتمدًا عليها معتقدًا أنها مؤثرة، فهذا شرك أكبر، أما إذا اعتقد أنها سبب، فهذا جائز؛ لأن الشرع رخص فيها، وهذا من الأسباب المشروعة.

ثم جاء بحديث عبد الله بن عُكَيم أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قال: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا؛ وُكِّلَ إِلَيْهِ»، هذا الحديث قال المؤلف: رواه أحمد والترمذي ورواه الإمام أحمد من طريق محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ عن أخيه عيسىٰ عن عبد الله بن عكيم، عبد الله بن عُكيم لم يسمع من النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- كما نصَّ علىٰ ذلك البخاري والتِّرمذي وأبو زُرعة وأبو حاتم، فالإسناد مُرسل، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ سيء الحفظ، هذا الحديث حديث ضعيفٌ، لماذا؟ لأن في إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ وهو ضعيف، وأيضًا لأن فيه انقطاعٌ بين النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- وبين عبد الله بن عُكيم، ولكن معنىٰ هذا الحديث تقدَّم في حديث عقبة بن عامر وغيره، وأيضًا دلالة الحديث أن «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا؛ وُكِّلَ إِلَيْهِ»، التعلق تارةً يكون بالفعل وتارةً يكون بالقلب، فإذا تعلق بهذا الشيء باعتقاد أنه مؤثر بذاته؛ فقد خرج من الملة، تعلق قلبه بهذا الشيء علىٰ اعتقاد أنه مؤثر بذاته فقد خرج من الملة؛ لأنه شركٌ أكبر، لكن إن تعلَّق شيئًا علىٰ جهةِ السببية، يعني تَعلَّق هذه التَّمائم علىٰ جهة السببية، قلنا هي سبب منهيٌّ عنه شرعًا، فهو شرك أصغر كما تقدم في الأسباب.

إذًا هذا الحديث «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا؛ وُكِّلَ إِلَيْهِ» هو قريب من حديث «إِنَّ الرُّقَىٰ وَالتَّمائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ» وقريب من حديث أيضًا عقبة بن عامر الذي مضىٰ.

ثم إن الإمام -رحمة الله عليه- قال: (التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَىٰ الْأَوْلَادِ علىٰ الْعَيْنَ)، قلنا: قوله: علىٰ الأولاد هذا كالمثال وليس للحصر، لو عُلِّق علىٰ جدار أو في سيارة أو علىٰ الدابة أو علىٰ جدار أو علىٰ بعيد أو علىٰ قريب كله يدخل في هذا.

(لَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ)، إذًا هو في -الأولِ قلنا في- حديث أبي بشير الأنصاري -رضي الله عنه- المعلق ليس فيه كتابة، إذًا هذه الصورة خارجة عن الخلاف، إذا عُلق شيء ليس فيه قرآن هذا خارج عن الخلاف، عُلق شيء بدون كتابة هذا محرم، تمائم محرمة، الكلام وإنما إذا علق شيئًا من القرآن، هل يجوز أو لا يجوز؟

هنا السلف اختلفوا فيه: منهم من رأىٰ أنه إذا علق شيئًا من القرآن، فإنه لا بأس به، والقرآن ومثلُه أيضًا الأدعية والأذكار المُباحة، وقد جاء ذلك عن عبد الله بن عمرو بن العاص في سنن أبي داود والترمذي لكن الإسناد فيه ضعف، والثابت عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنه كان ينهىٰ عن ذلك، هو الثابت عن ابن مسعود. غيره من الصحابة نُقل عنهم الجواز في بعض لكن فيما وقفتُ عليه ليس فيه شيء ثابت يُعتمد عليه، قد يكون لكن الله أعلم، لكن هنا ابن مسعود ثبت عنه أنه كان ينهىٰ عن ذلك، هذا النهي من عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- لماذا كان؟ لأن بعض السلف يبيحه، يجيزه، وبعض السلف يجيزه إذا كان بعد وقوع البلاء دون وضع هذا قبل حصول البلاء، يعني في حال الرَّفع لا في حال الدَّفع، وبعضهم ينهىٰ

عنه مطلقًا ومنهم ابن مسعود وعليه أصحابه، أصحاب ابن مسعود -رضي الله عنه-، لماذا؟

لأن: أولاً؛ لعموم الأدلة الدالة علىٰ أن التمائم شرك؛ فأي شيء يُراد فعله لا بدَّ أن يكون هناك دليل يُخصص هذا العموم.

وثانيًا: أنهم فسروه بأنه قد يكون ذريعةً إلىٰ الشِّرك بوضعِ ما فيه شركٌ، ومنها أنه لم يثبُت عن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- ولا عن أحدٍ من أصحابه ممن يُعتدُّ بهم في وضعها، بل ثبت عن ابن مسعود النهي عن ذلك، وعلَّله بعضهم بما يُحذَر من الدخول بهذه التمائم إلىٰ الأماكن التي لا يصحُّ الدخول فيها من الأماكن التي يوجد فيها الأنجاس.

علىٰ كلٍّ، كل هذه التعليلات بعضها قوي وبعضها ضعيف، لكن الذي يعنينا هنا أنه ثبت عن ابن مسعود النهيُ عنها ولم ينقل عن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أنه كان يُعلق عليهم، بل نُقل عن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أنه كان يُعوِّذ الحسنَ والحسينَ «أعوذُ بكلماتِ الله التامة من كل شيطانٍ وهامة ومن كل عين لامة»، هذا ثابت في الصحيح، يعوِّذ بها الحسن والحُسين.

فلمَّا لم ينقل دلَّ ذلك علىٰ أنه غير مشروع؛ لأنه لو كان مشروعًا لفعله أصحابُ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، ولو فعلوه لكان ممن تعمُّ به البَلوىٰ وما ينقله الناس جيلاً عن جيل؛ ولذلك يقال: إن الأظهر والله أعلم إن تعليق هذه التمائم المكتوب فيها قرآن أنه يُنهىٰ عنه، لا يجوز، وأن هذا من المنهي عنه الذي لا يجوز، وهي كثير الآن يعلقونه علىٰ شكل سلاسل ذهب وعلىٰ شكل كعبة في السيارة وتُكتب فيه

آيات، أو يضع في بيته آيةً مثل آية الكرسي يعتقد أنها تدفع عنه البلاء، وهذا لا يجوز، لكن تعليق الآيات القرآنية، قد يكون للتمائم وهذا ما يجوز، شرك، وقد يكون للزينة، واللهُ ما أنزل القرآن للزينة؛ ولهذا لا توضع، قد يقول بعض الناس: للتَّذكير، هي للتذكير إذا كانت للتذكير ما تكون بهذا الخط الجمالي وتداخل حروفه إلىٰ غير ذلك، إذا كانت للتذكير؛ من يَضعها للتَّذكير الواحد ما ينسىٰ ذكر الله ولا ينسىٰ كذا، وحتىٰ لو كانت للتذكير لكن ما تكون بالصيغة التي تُشعر بأنها بغيره بل للزينة.

ثم قال: (وَرَوَىٰ أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ اسْتَنْجَىٰ بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ»).

هذا حديث رُويفع قال: وروىٰ أحمد وخرجاه الإمام أحمد -رحمه الله- من حديث عبد الله بن لهيعة عن عياش بن عباس القِتْباني عن شَيِّم بن بَيْتان عن رويفع، وابن لهيعة كما نعلم ضعيف ولكن توبع ابن لهيعة، تابعه حيوة بن شريح عند النسائي وحيوة ثقة، فالحديث علىٰ كلٍّ صحيح، فهذا الحديث حديث صحيح، طبعًا هذه الرواية التي من رواية ابن لهيعة هي أصح الأوجه وهي الرواية الراجحة من هذا الحديث بهذا الإسناد، وهي رواية صحيحة كما قلنا وإسنادٌ صحيح، قد جوَّد هذا الإسناد النَّووي في المَجموع وابن الملقِّن في البدْر المُنير وصححه الشيخ سليمان في التيسير وكذلك صححه الشيخ الألباني.

قوله: «يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ»، عقدُ اللحية سُئل عنه الإمام محمد بن عبد الوهاب في بعض كتبه، فقال: لا أعلمه، ولكن

ذكروا أنه شيئًا يكون في الحرب، فبعض العلماء قال إن عقد اللحية يكون بعضهم كان يعقد اللحية في الحرب من باب التَّكبر وغيره، والفعل هذا تشبه بأهل الكبر والجبروت وهذا لا يجوز، وبعضهم قال: عقد اللحية إنما نَهي عنه؛ لأن ما فيه من التَّشبه بالإناث -والله أعلم.

«أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا»، وهذا هو الشاهد، «أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا» الوتر هو الذي ذُكر في حديث أبي بشير الأنصار الذي تقدم لنا وهو ما يجمع بين طرفي القوس، «أَوِ اسْتَنْجَىٰ بِرَجِيعِ دَابَّةٍ» يعني: روَث الدابة، «أَوْ عَظْمٍ»؛ لأن العظم طعامُ الجن لا يجوز الاستنجاء به، قال: «فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ»، البراءة هنا قوله: «بَرِيءٌ مِنْهُ» أو ليس منَّا، الصواب في تفسيرها أنها من ألفاظ التغليظ، وأنها لا تُفسَّر؛ لأنها إذا فُسرت ذهب المراد منها وهو التغليظ الشديد في مثل هذه الأمور، «فَإِنَّ مُحَمَّدًا -صلىٰ الله عليه وسلم- بَرِيءٌ مِنْهُ»، لكن هل هذا يدل علىٰ خروجه من الملة؟ لا؛ لأن من استنجىٰ برجيع دابة وعظم لا يكون كافرًا، من عقد لحيته لا يكون كافرًا، لكن من تقلد وترًا فهو علىٰ الأصل أنه شرك أصغر، إلا إذا اعتقد صاحبه أن هذا الوتر يستقل بالتأثير دون الله - جل وعلا.

إذًا الشاهد من قوله: «أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ»، هذا براءة النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- منه، وذلك يدل علىٰ عِظم هذا الذنب، وقد جاءت الأحاديث الأخرىٰ وفسرت أن تعليق التمائم أنه من الشرك، والشرك الأصغر أعظم من كبائر الذنوب "جنس الشرك الأصغر أعظم من جنس كبائر الذنوب"، يعني أعظم من قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والزنا، والربا وغيرها من المحرمات.

ثم قال: (وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؛ أنه قَالَ «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ». قال: رَوَاهُ وَكِيعٌ)، يقصد به وكِيع بن الجراح، وطبعًا وكيع له الزُّهد وله التَّفسير وله السُّنن وله التَّاريخ كلها مفقودة إلا الزُّهد، لكن هذا الحديث ليس في الزهد، لعله في كتبه الأخرىٰ لكن هذا الحديث جاء في مصنف ابن أبي شيبة رواه عن حفص بن غياث عن ليث بن أبي سُليم عن سعيد بن جُبير -رحمه الله-، وليثٌ فيه ضعفٌ، لكن العلماء يخففون في باب الآثار، وهذا الأثر ليس هو متعلقًا، ليس فيه شيء مخالف، وقول سعيد بن جبير: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ»، الرقبة: إذا الإنسان أعتق رقبةً، يعني كان هناك عبد فأعتقه الإنسان فجعله حرًّا، فسعيد بن جبير شبه أن من قطع التميمة من الإنسان كمن أعتق عبدًا، بجامِع أن كلاًّ منهما صار حرًّا، هذا صار حرًّا في عبوديته لله بقطع هذه التميمة؛ لأنه لا يجوز أن يشرك مع الله أحدًا، وذلك صار حرًّا بإعتاقه له، يعني صار له الحرية ضد الرِّق، فكأن الذي علق التميمة صار رقيقًا لها، نسأل الله العافية.

قال: (وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ)، يقصد به إبراهيم بن يزيد النَّخْعي التَّابعي الجليل المعروف، قَالَ: (كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَمِن غَيْرِ الْقُرْآنِ)، يقصد (كَانُوا يَكْرَهُونَ) إذا قالها إبراهيم بن يزيد النَّخعي يقصد به أصحاب ابن مسعود من أهل الكُوفة كأبي وائل وعُبيدة السلماني ومسروق بن الأجْدع وغيرهم كثير من أصحاب ابن مسعود، قَالَ: (كَانُوا يَكْرَهُونَ)، والكراهية هنا يراد بها كراهية التحريم؛ لأن هذا هو العُرف الذي كان سائدًا في ذاك الزمن، وهذا الأثر قال: (وَلَهُ) أي لوكيع، وهذا الأثر أخرجه ابن أبي شيبة وأبو عبيد بظاهر القرآنِ بإسناد صحيح؛ لأنه من

رواياتهم عن غُشيم، عن المغيرة بن الحكم الضَّبِّي عن إبراهيم بن يزيد النَّخعي، وهو إسناد صحيح.

قوله: (كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ)، هذا يريد به -رحمه الله- ما ذكره سابقًا في قوله: (وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، مِنْهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ)، فابن مسعود -رضي الله عنه- جعله منهي عنه وهؤلاء أصحابه علىٰ سيرته بهذا، ولهذا قال إبراهيم: (كَانُوا يَكْرَهُونَ)؛ أي أتباع أو كِبار أصحاب ابن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- وهذا هو الشاهد هنا.

بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا

{(بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا:

وَقَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَىٰ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠].

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اَللَّيْثِيِّ قَالَ «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّىٰ اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ! وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ! فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اَللَّهِ اِجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّىٰ اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اَللَّهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا اَلسُّنَنُ! قُلْتُمْ - وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رَوَاهُ اَلتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ)}.

هذا الباب من أهم الأبواب في كتاب "التوحيد" لماذا؟

لأن كثيرًا ممن وقع من الشرك إنما أوتي من هذا الباب، باب التَّبرُّك، ولو تتبَّعت الناس اليوم وهم يتحدثون أو يكتبون ممن وقعوا في الشرك إنما انطلقوا من باب التَّبرك، يعني قالوا هذا تبرُّك، فنحن بحاجةٍ إلىٰ فهم معنىٰ التبرك والمشروع منه والممنوع علىٰ وَفْق القواعد الشرعية والأصول التي اتبعها العلماء، وهذا من أهم الأبواب الذي يجب أن يُفهم هو وباب الشَّفاعة، وأيضًا هناك ما يتعلق بالتوسُّلات، هي ثلاثة أبواب، طبعًا المؤلف جاء بالاستغاثة ويسمونها باب التوسل، فهذه الأبواب

الثلاثة مهمة جدًّا في فهم أو معرفة سببِ الوقوع في الإشراك بالله عز وجل عند كثير من المتأخرين، وأيضًا معرفة الردِّ علىٰ شبهاتهم التي يُثيرونها علىٰ أهل التوحيد.

التبرُّك: طلب البركة، والبركة: هي النَّماء والزيادة والدَّوام والثُّبوت وكثرةُ الخير، هذا في لغة العرب، والتبرك بالشيء هو التَّيامُن به لما فيه من البركة، يتبارك بالشيء: يتيامن به، لماذا؟ لما فيه من البركة.

أولاً: لفهم هذا الموضوع لا بدَّ أن نعلم علمًا يقينيًّا أن البركة من الله، ما الدليل عليها؟ الدليل عليها دليلان:

أولاً: ثبت عن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- في حديثين في صحيح البخاري والقصة واحدة هي قصة حين خرجوا في بيعة الرضوان، وقدوا الماء، فقد الصحابة الماء لما كانوا في السفر، جاء في حديث ابن مسعود وفي صحيح البخاري أن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قال: «حَيَّ علَىٰ الماءُ الطَّهُورِ» أو «حَيَّ علَىٰ الطَّهُور والبَرَكةُ مِن اللهِ»؛ لأنه كان لما أوتي بقدح وضع النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- فيه كفَّه، فصار الماء يخرج من بين أصابع النبي -عليه الصلاة والسلام- وهذا من آياته ومعجزاته، وكان عددُ من معه نحو ألف وأربعمائة أو ألف وخمسمائة من أصحاب النبي -عليه الصلاة والسلام-، فتوضئوا كلهم من هذا القدح الصغير، قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «والبَرَكةُ مِن اللهِ»، ما قال هذه بركتي أنا، «والبَرَكةُ مِن اللهِ»، يعني النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- تبرَّأ أن تكون البركة منه، تبرَّأ أن يكون هو الذي أوجد البركة في الماء، لماذا؟ لأن عندنا البركة: هي إيجاد البركة في الشيء، فمن الذي يُوجد البركة في الشيء؟ هو الله وحده لا شريك له، المخلوق لا يُوجد بركةً

في مخلوق مهما كان، الذي يُوجد البركةَ في المخلوق هو الخالق -سبحانه وتعالىٰ- ، وجاء في حديث جابر في نفس القصة قال أيضًا «البَرَكةُ مِن اللهِ» حديثان في صحيح البخاري «البَرَكةُ مِن اللهِ» كما ثبت، «البَرَكةُ مِن اللهِ» هو حديث قصة واحدة لكن رواها اثنان والثالث صحيح البخاري، «والبَرَكةُ مِن اللهِ».

إذًا قوله: «البَرَكةُ مِن اللهِ» أي: البركة كائنةٌ من الله؛ لأن البركة مبتدأ والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره كائنًا، يعني البركة كائنة من الله، إذا قلنا البركة كائنة من الله، فهل يجوز لنا أن نقول بعد ذلك إن البركة كائنة من المخلوق؟ لأنها بصيغة حَصْر ما يمكن أن يُقال ذلك أبدًا؛ لأنه قال: «البَرَكةُ مِن اللهِ»، هذه البركة من الله، ولو نظرنا إلىٰ ما جاء من القرآن لم يسند فيه البركة للمخلوق، أُسندت للخالق، قال الله تعالىٰ في قصة عيسىٰ -عليه السلام- تكلم في المهد: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ [مريم: ٣١]، وقال الله تعالىٰ في قصة آل إبراهيم: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣]، أي بركات الله -عز وجل-، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الأَقْصَىٰ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ [الصافات: ١١٣]، وقال تعالىٰ في سورة "الأنبياء": ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَىٰ الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٧١].

ليس فيه هناك إسناد البركة للمخلوق، ما فيه إسناد، بمعنىٰ أن هذه البركة مَنشؤها ومصدرها هو الله؛ لأنه هو الذي جعلها، جعلها الله -عز وجل- في المكان، جعلها في الزمان، جعلها للأشخاص، الذي جعلها هو الله تعالىٰ لم يجعلها مخلوق أبدًا،

والنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- في أحاديث كثيرةٍ ذكر البركةَ من الله ودعَا الله للبركةِ، «اللَّهمَّ باركْ لنا في صاعِنا ومُدِّنا»، «اللَّهمَّ بارِكْ لنا في يَمَنِنا وشامِنا»، وقال في أنس: «اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ مَالًا ووَلَدًا، وبَارِكْ له فِيهِ»، في حديث الاستخارة أنه قال: «ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ»، ولما دَعا للسَّائب بن يزيد -رضي الله تعالىٰ عنه- دعا له بالبركة، وكان يُؤتىٰ بالأطفال حديثي العهد بالولادة، فيبرِّك عليهم، يعني يدعو لهم بالبركة، وفي دعاء «اللَّهُمَّ اهْدِنا فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَبَارِكْ لنا فِيمَا أَعْطَيْتَ» كان من دعاء النبي -عليه الصلاة والسلام-، وأيضًا في الصلاة الإبراهيمية، «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ»، ثم قال: «وبَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وآلِ إِبْرَاهِيمَ».

إذًا كلها سؤال البركة من الله -عز وجل-، لماذا؟ لأن المخلوق لا يُنشِئ بركةً، وأن البركة هي التي يضعها الله -عز وجل- في خلقه، هذا يجب أن نعلمه علمًا يقينيًّا، إذا عرفنا هذا ماذا يترتب عليه؟ ماذا يترتب علىٰ هذه المعرفة؟

نقول إذا علمنا أن البركة من عند الله، فإذا كانت من عند الله فإنها لا تُطلب إلا من الله، ولذلك النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- يطلبها من الله، لا يطلبها من سواه، إذًا البركة -انتبهوا- مِلكٌ لله، «والبَرَكةُ مِن اللهِ» هي مثلها مثل الشفاعة.

ثانيًا: أنها إذا كانت من الله فإنها تُطلب منه لا تُطلب من غيره؛ لأنها إذا طُلبت من غيره فهو عُدوان علىٰ مُلك الله؛ لأنه لا يجوز لأحد أن يتصرف في ملك الله ولا يجوز لأحد أن يسأل غيره ما ليس في ملكه، البركة ما مقصودها؟ البركة ماذا يقصد بها؟ لما يأتي الآن الذين يتبركون يُطلب بها نفع دنيوي أو أخروي، إذًا في حقيقتها ما هي؟ في حقيقتها هي مثلها مثل الدعاء ولكن هذا قول وهذا فعل؛ لأنك الآن لما

تقول: اللهم اغفر لي ذنبي، اللهم ارزقني، هي مثلها مثل من يأتي إلىٰ رجل يتبرك به ويظن أنه يُفيض عليه من الفيوضات وأنه يشفع له عند رب العالمين ويرفع حاجته، هي مثلها مثلها، لماذا؟ لأن المقصود مغفرة الذنب أو الرزق أو رفع البلاء وكلها واحد، مثلها مثل من يدعو الله -عز وجل- لكن هذا بالقول وهذا بالفعل.

إذا علمنا أنها مِلك لله وأنها لا تطلب إلا من الله -سبحانه وتعالىٰ-، يأتينا سؤال: الصحابة تبركوا بالنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- بجسده وريِقه ولباسِه -عليه الصلاة والسلام- والعلماء مُجمعون علىٰ ذلك، في حياته وبعد مماته من الأشياء المتصلة به، مثل شعره -عليه الصلاة والسلام-، ومثل الذي بقي بعده -عليه الصلاة والسلام-، ثم ...، إلىٰ آخره، بقِيت هذه الأشياء متصلة بالنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- تبرك بها الصحابة والعلماء مُجمعون علىٰ جواز التبرك بها، وكانوا يتبركون به في حال حياته، لكن الصحابة ما طلبوا البركةَ منه؛ فيه فرقٌ بين طلب البركة من الشيء وطلب بركة الشيء، طلب بركة الشيء ما معناه؟ معناه أن يأتينا الخبر الصادق أن في هذا الشيء بركة، فنطلب بركة هذا الشيء، البركة من الذي وضعها؟ هو الله، إذًا فإنك تطلبها من الله ما تطلبها من المخلوق، مثل الرزق الآن أن تبحث عن رزقك، الزرق مَن الذي أنزله؟ أنزله الله -عز وجل-، هل نقول من طلب الرزق وبحث عنه يكون مشركًا؟ لا، لكن من قال: إن الذي يرزق غير الله، كان مشركًا، فهنا فيه فرقٌ بين طلب بركة الشيء وبين طلب البركة من الشيء؛ فالذين -الآن- يأتون إلىٰ هؤلاء المقبورين أو من الأحياء الذين يزعمون أنهم أولياء؛ هو حينما يتبرك به الآن ويأخذ يده مثلاً، ماذا يظن؟

ماذا يعتقد فيها؟ في هذه اليد التي يضعها؟

نقول له: هذه اليد التي أنت الآن تضعُها: هل ثبت فيها بركة شرعًا؟

ما ثبت فيها بركة شرعًا، هل هذا الرجل ثبت أنه مبارك؟

هذا رجل صالح، أولاً الصلاح هو في الظاهر وليس في الباطن.

نكمل إن شاء الله لها تفصيل -إن شاء الله- في الدرس القادم.

{بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

قال المؤلف -رحمه الله تعالىٰ-: {(بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا:

وَقَوْلِ اَللَّهِ تَعَالَىٰ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠].

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اَللَّيْثِيِّ -رضي الله عنه- قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّىٰ اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ! وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ! فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اَللَّهِ اِجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ رَسُولُ اَللَّهِ صَلَّىٰ اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اَللَّهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا اَلسُّنَنُ! قُلْتُمْ - وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رَوَاهُ اَلتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ)}.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ رسول الله وعلىٰ آله ومن اهتدىٰ بهداه، هذا باب من تبرَّك بشجرٍ أو حجر ونحوهما، هنا "مَنْ تَبَرَّكَ" أكثر شراح كتاب "التوحيد" علىٰ أن "مَنْ" هنا شرطية، وإذا كانت شرطية فتحتاج إلىٰ جواب، تقدير من تبرك بشجرٍ أو حجرٍ ونحوهما فقد أشرك، والتَّبرك:تفعُّل، والاسم منه البركة، ومعنىٰ ذلك -معنىٰ التبرك- الزيادة والنَّماء وهي ثبوت الخير ودوامه، هذا هو معنىٰ هذه المادة، مادة بركة هذه دالة علىٰ النماء

والزيادة والدوام والثبوت واللزوم، وهذا في أصله اللُّغوي ويراد بها هنا: الشيء الذي يُتبرك به بمعنىٰ أنه: تُطلب بركته، سواء كان ذلك نفعًا دنيويًّا أو أخرويًّا، وقول المؤلف -رحمه الله-: (وَنَحْوِهِمَا) أي ونحو الشجر والحجر، وهذا دليل علىٰ أن الحكم في التبرك ليس مختصًّا بالشجرة والحجر ولكن يتجاوزهما إلىٰ غيرهما مما هو في معناهما، مثل الكهوف والمغارات والمزارات وغيرها مما يتبرَّك به.

فهو ذكر الشجرة والحجر بأنه هو الوارد في الأدلة التي ذكرها المؤلف -رحمه الله- وغيرها يأخذ حكمُها؛ لأن العلة فيها واحدة، وهذا الباب من أهم الأبواب في كتاب "التوحيد"، الشاطبي -رحمه الله- ذكر أن التَّبرُّك هو أصل الدين، بل هو أصل عبادة الأوثان، يعني أن عبادة الأوثان كان الطريق إليها من طريق التبرك الذي فعلته الأمم السابقة فوقعت في الإشراك بالله -عز وجل- وعبادة الأوثان، وهذا أمرٌ مهم، واليوم كثيرٌ من المنتسبين إلىٰ الإسلام يقع عندهم نوع من هذا التَّبرُّك الممنوع شرعًا، سواءٌ كان شركًا أصغر أو شركًا أكبر، وهو كثير منتشر، فكان حقًّا أن يُفهم هذا الباب علىٰ الوجه الشرعي لسببين:-

السبب الأول: أن الإنسان يحفظ نفسه من الوقوع في هذه الأمور التي تئول به إلىٰ الإشراك بالله -عز وجل-.

والثانية: أن الذين يلبسون علىٰ الناس دينهم من الذين يروِّجون للشِّرك وغيره؛ إنما يروجون له من طريق التبرك والتوسل والشفاعة، وهذه ثلاثة أبواب خطيرة لا بدَّ للإنسان أن يفهمها؛ لئلَّا تلتبس عليه الأمور، لكن إن فهم الباب علىٰ وجهه فإنه بفضل الله -سبحانه وتعالىٰ- يرد كل شبهة يشبه بها كل هؤلاء عن نفسه، وعن غيره.

فنقول أولًا: البركة ثبت في الصحيح -صحيح البخاري- من حديث جابر بن عبد الله ومن حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-، في بيعة الرضوان لما كان النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- وأصحابه في سفر وكانت عدتهم أربعمائة وألف أو خمسمائة وألف، ولم يكن عندهم ماء، فأُحضر قدحٌ صغير للنبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، فأدخل يده فيه فنبع الماء بين أصابعه، فتوضئوا جميعًا منه، فقال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «حَيَّ علَىٰ الطَّهُورِ المُبَارَكِ، والبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ»، وهذا لفظ حديث ابن مسعود، وحديث جابر بمعناه، قريب منه، هو قال: «والبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ» في الحديثين، حديث جابر وحديث ابن مسعود قال: «والبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ»؛ أي البركة كائنة من الله.

فإذا كانت البركة من الله، فلا يجوز نسبتُها إلىٰ غيره من خلقه، مثل الشفاعة، ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] إذا كانت الشفاعة لله، أيضًا البركة من الله، وإذا كانت من الله فلا يجوز نسبتُها إلىٰ غير الله، يؤكد هذا المعنىٰ ويبينه ويوضحه أن القرآن العزيز، والسُّنَّة النبوية الكريمة ليس فيها نسبةُ البركةِ إلىٰ المخلوق أي لم يأت أن المخلوق يبارك غيره، وأن الذي يبارك غيره هو الله -جل وعلا-، لماذا؟ لأن الله -عز وجل- قال عن نفسه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الزخرف: ٨٥]، إلىٰ غيرها من الآيات التي ذكر الله فيها -عز وجل- تباركَهُ، وتبارَك هنا بمعنىٰ: تعالىٰ وتعاظم، فهو صفة لله -عز وجل-، فإذا كان الله -عز وجل- متصفًا بهذه الصفة، إذًا هو الذي يجعل البركة في غيره، وليس المخلوق هو

الذي يجعل البركة في المخلوق؛ ولهذا في القرآن الكريم قال الله -جل وعلا-: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَىٰ الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، -لاحظوا- قال: ﴿بَارَكْنَا فِيهَا﴾، وقال -جل وعلا-: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًىٰ ظَاهِرَةً﴾ [سبأ: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني: إبراهيم ﴿وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ [الصافات: ١١٣].

وقال -جل وعلا- في شأن عيسىٰ ابن مريم: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ [مريم: ٣١]، من الذي جعله مباركًا؟ هو الله، ومبارك: اسم مفعول، إذًا هناك من جعله مباركًا، الذي جعله -كما قال عيسىٰ ابن مريم، وجعلني يعني: رب العالمين -سبحانه وتعالىٰ-، وقال تعالىٰ: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ﴾ [هود: ٧٣]، عطف البركات علىٰ الرحمة، فهي لله -عز وجل-.

﴿قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾[هود: ٤٨]، ﴿بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ أيضًا منَّا، هذه البركات والبركة والمبارك كلُّها من عند الله، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦]، الذي بارك هو الله؛ لأن هذا اسم مفعول يحتاج إلىٰ مبارِك، والمبارِك هو الله -عز وجل-.

قال -جل وعلا-: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق: ٩]، إذًا (مبارَك) اسم مفعول، واسم المفعول يحتاج إلىٰ أن يكون هناك فاعل، إذًا هذه الآيات تدل علىٰ أو تقرِّر معنىٰ قول النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «والبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ»، والسُّنَّة مليئةٌ « اللهم صلِّ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ كما صليتَ علىٰ إبراهيم، وبارِك علىٰ محمدٍ وعلىٰ آل محمدٍ كما باركتَ علىٰ إبراهيمَ»، في دعاء القنوت أو ثابتٌ عن النبي -

صلىٰ الله عليه وسلم. ثبوته في القنوت محلُّ نظر، قال: « وبارِك لي فيما أعطيتَ»، في الاستخارة إذا استخار وطلب الِخيرَة وأحسن، قال: «ثم بارك لي فيه»، وقال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «اللهم بارك لنا» طلبها من الله «اللهم بارك لنا في شامِنا وفي يمنِنَا، اللهم بارك لنا في مُدِّنا وصاعِنَا»، وقال في الزواج للمتزوج: « بارَك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير»، أحاديث كثيرة كلها دالة علىٰ هذا المعنىٰ.

إذًا نلاحظ في النصوص الشرعية أنها ليس فيها إضافة النسبة إلىٰ الله، بل فيها طلب البركة من الله -عز وجل-، وفيها نسبة البركة إلىٰ الله، وفيها أيضًا جعل المخلوقات مباركة، ولا يجعل المخلوق مباركًا إلا الذي خلقه، إذًا الآيات والأحاديث تقرر مبدأ أن البركة من الله، وهذا أصل يجب علىٰ الإنسان أن يستمسك به، هذا أولًا.

ثانيًا: البركة في الشَّيء لا تُعلَم إلَّا من طريق الشرع، سواءٌ كانت بركة معنويَّة، يعني حسنات ودرجات أو هي انتقال، شيء من شيء إلىٰ آخر، هذا لا يُعرف إلا بطريق الدَّليل الشرعي، لما نأتي الآن نقول البركة كما قلنا لا تُعرف وتُدْرك إلا بالطَّريق الشرعي، كون الشيء مباركًا لا تعرفه إلا بالطَّريق الشرعي.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ وصفه بالمبارك هذا طريق شرعي، البيت الحرام مبارك طريق شرعي، إذًا لا تثبت البركة إلا من الطريق الشرعي فقط، غيره لا تثبت فيه بركة أو لا يثبت عن طريقه البركة، لما نأتي إلىٰ الطريق الشرعي هذا نقول ثبت بالطريق الشرعي أن هذا فيه بركة، كيف نطلب البركةَ مِنه؟ هذا سؤال: كيف

نطلب البركة منه؟ لأننا لا نعلم كيفية طلب البركة منه إلا بما جاء به الشرع، فقول الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ بيَّنت السُّنَّة بركة هذا البيت بالطواف والصلاة والاعتكاف وبالحج إليه، وبالاعتمار إليه وبالدعاء فيه، إلىٰ غيرها، هذه بركات هذا البيت، لكن ليس من حق الإنسان أن يفعل الشيء علىٰ وجهٍ غيرِ مشروع ويزعم أنَّ هذا هو البركة التي جعلها الله -عز وجل- في هذا الشيء، فمثلًا الذين يأخذون الحصىٰ والحجارة من مكة ويذهبون بها ويتبركون بها، أو يتبرَّك بأستار الكعبة، هذا طلبٌ للبركة من غير وجهٍ شرعي، وهي طريقة خلاف الشرع.

ثبت في الصحيحين من حديث ابن الزبير -رضي الله عنه- لما رأىٰ النَّاس يتمسحون بالمقام، قال: "أُمروا أن يصلوا إليه، ولم يُؤمروا أن يتمسَّحوا به"، فالمقام بركته في الصلاة إليه، ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، هذا بركة المقام، أما التَّمسُّح به وغيره هذا ليس من بركة المقام، هذا إدخال علىٰ الشَّريعة ما ليس منها، أو إدخال شيء علىٰ الشريعة ليس منها، وبالتالي طلبه بهذه الطريقة لا يجوز، وهو من البركة حينئذٍ الممنوعة وليس من البركة الجائزة.

إذًا هذان أمران: البركة من الله، وطلب البركة يكون علىٰ الوجه المشروع، التبرك الآن ثبت في الشرع أشياء كثيرة فيها تبرُّك ولا خلاف فيها؛ لأنها أقيمت علىٰ الوجه المشروع فيها لكن لو قال لنا قائل: نحن الآن نتحدَّث عن بركة الذَّوات وليس بركة المعاني؛ لأن المعاني واضحة، ولأن المعاني هي عبارة عن تشريع، والتشريع لا بدَّ؛ فيه من المتابعة، الكلام في بركة الذَّات، الحجارة ذات، والشَّجر ذات، وبني آدم ذات، نحن نتكلم عن بركة الذوات، وقد ثبت بالتواتر أن أصحاب النبي -صلىٰ الله

عليه وسلم- كانوا يتبركون به وبعد مماته بمن فصل عنه -صلىٰ الله عليه وسلم-، وهذا مُجمعٌ عليه، وحتىٰ حكىٰ بعض العلماء أنه لا نزاع أيضًا في بقية الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من جواز التبرُّك بذواتهم، وأصحاب النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- تبرَّكوا بالنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- ولم ينكره عليهم -عليه الصلاة والسلام-، هؤلاء تبرَّكوا بالنبي -عليه الصلاة والسلام.

فيأتينا آتٍ ويقول: كيف يقال إن التبرُّك شركٌ أصغرُ أو أكبرُ، وهؤلاء الصحابة يتبرَّكون بالنبي -صلىٰ الله عليه وسلم؟!

أيفعلون الشرك؟! يقال: لا، فعله الصحابة، وغَلِط ما فعله ممن جاء بعدهم ممن تبرَّكوا بالأولياء والصالحين، كيف ذلك؟

نحن نقول: إن التبرُّك يشترط له ثلاثة شروط:

الشرط الأول: ثبوتُه، ثبوت ذلك هذا أولًا، أو ثبوت كون هذا الشيء بركة، أنْ يثبت أنَّ في هذا الشيء بركة هذا أولًا.

ثانيًا: طلب هذه البركة علىٰ الكيفيَّة المشروعة.

وثالثها: اعتقاد أن هذه البركة سببًا لا تستقل بالتأثير؛ وإنما هي سبب من الأسباب، إن شاء الله -عز وجل- جعل فيها البركة لفلان، وإن شاء لم يجعل فيها البركة لفلان، يعني لم ينله نصيب هذه البركة.

فهذه ثلاثة شروط ثبوت البركة في الشيء، طلب البركة علىٰ الكيفيَّة الشرعيَّة، والثالث: أنْ يعتقد الإنسان أنَّ هذه البركة ما هي إلا سبب من الأسباب تحت قدر

الله، إن شاء الله -عز وجل- أَنال العبد نصيبًا منها وإن شاء لم ينلْه منها شيئًا، وهذا قدر الله أو قدر الله الذي يقدِّره -سبحانه وتعالىٰ.

هذه الآن إذا فهمنا هذه القضية نعود بعد ذلك إلىٰ ما فعله الصَّحابة مع النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، نقول: النَّبي -صلىٰ الله عليه وسلم- لما أقرَّ الصحابة علىٰ التبرُّك به، دل ذلك علىٰ أنه -عليه الصلاة والسلام- مُبارَك، أي فيه بركة، وأن بركته طلبها الصحابة علىٰ الكيفية المشروعة، تبرَّكوا بريقة وبشعره وبغيرها، إذًا الصحابة تبرَّكوا بذلك علىٰ وجه رآهم النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- فعلوه ولم ينكر عليهم، فدل ذلك علىٰ أن البركة فيه -عليه الصلاة والسلام-؛ وأنَّ الصحابة نالوها بالطريق المشروع.

لمَّا نأتي إلىٰ التبرُّك بالصالحين من بعده، بأجسادهم، بشعورهم، بريقهم، بغيره، هل نقول إنه يجوز أن يُتَبَرَّكَ بِهِم؟

الجواب عن ذلك أولًا: أن نقول إنَّ أكرم الخلق بعد الأنبياء هم أصحاب محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-، أفضل الخلق بعد الأنبياء الصحابة -رضوان الله عليهم- ولم يتبرك أحد منهم بأحد، لم يثبت ذلك قط، فلم يتبركوا بأبي بكر، ولا بعمر ولا بعثمان، ولا بعلي ولا بالعشرة ولا بأزواج النبي -عليه الصلاة والسلام- ولا بغيرهم مما ثبتت لهم الفضائل الكثيرة، فضلًا عن غيرهم، وقد ذكر الشاطبي في الاعتصام وابن رجب بأنه لم يثبت عن أحد من ...النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أنه تبرك بغيره من الصَّحابة، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، هذا أولًا.

ثانيًا: أنَّ الأولياء والصالحين ليس هو أمر مقطوع به، لأنَّنا لا نقطع لأحد بالصَّلاح والولاية إلَّا إذا شهد له الله أو رسوله -صلىٰ الله عليه وسلم؛ لأن هذا حكم يتعلَّق بالباطل، فإن الرجل قد يكون مظهرًا للإيمان، ومظهرًا للطاعة ولم يُر عليه معصية؛ ولكن الله يعلم من قلبه نفاقًا، فنحن إذْ نزكيه في أخذ البركة منه نزكي ظاهره وباطنه، وليس نزكي ظاهره فقط؛ لأنه ليس لنا في التزَّكية إلا الظَّاهر، فلان نحسبه رجلًا صالحًا ولا نزكي علىٰ الله أحدًا، لكن باطنه الله أعلم به، إذًا لما ننظر إلىٰ النبي -عليه الصلاة والسلام- الله زكاه ظاهرًا وباطنًا، وغيره يحتاج إلىٰ تزكية في الباطن.

قد يقول قائل: العشرة المبشرون بالجنة بشارتهم بالجنة والشهادة لهم بذلك ،وغيرهم كالحسن والحسين، وعكَّاشة ، وغيرهم مشهود لهم بالجنة، هؤلاء ثبت أنَّهُم صالحون، هل يقاسون علىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-؟ لا يقاسون، لماذا؟ لأن الصلاح يتفاضل، إذا كان الأنبياء يتفاضلون ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فالصالحون يتفاضلون فيما بينهم، والصلاح يتفاضل، فهل صلاحُهم وإيمانهم كإيمان النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-؟ لا، قطعًا.

إذًا هم في رتبة دون الأنبياء، فلا يلحق الأدنىٰ بالأعلىٰ؛ لأنَّ في الأعلىٰ وصفًا ليس في الأدنىٰ، والقياس يقتضي وجود العلَّة في الفرع كما هي في الأصل، وهنا ليست موجودة، لأنَّنا نقطع بأنهم ليس إيمانهم كإيمان النبي -صلىٰ الله عليه وسلم.

الأمر الثالث: مما يمنع إلحاق غير النَّبي بالنَّبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أن النَّبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أعلمُ الناس بربهم وأشدهُم خشيةً له، وليست ثَمَّ فتنة عليه

بأن يوافق النَّاس علىٰ أنْ يعطوه شيئًا من حق الله -عز وجل-؛ ولهذا أنكر علىٰ من غَلا فيه -عليه الصلاة والسلام-، وقال: «وإنَّما أَنَا عَبْدٌ، فَقُولوا: عبدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»، وقال: «إنَّما أهْلَكَ من كانَ قبلَكُمُ الغلوُّ»، ولكن غيرهم لا تؤمَن عليه الفتنة، فلو تبرك الناس به لربما آل به الأمر لأن يتخذ نفسه إلهًا يُعبد مع الله -عز وجل-، فالفتنة لا تُخشىٰ عليه وعلىٰ من يتبرَّك به؛ ولهذا النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- لا يصح القياس عليه، قياس الصالحين عليه، أولًا -كما قلنا- لأنه ثَمَّت فرق بين النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- وغيره، الله قال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، والنبي عبد اصطفاه الله -عز وجل.

إذًا فلا يصح أن يقاس غيره عليه، ولو قلنا بالقياس نحتاج أن نبيِّن أن هذا من الذين اصطفاهم الله أو من الصلحاء في الظاهر والباطن ولا سبيل إلىٰ ذلك إلا بالنَّص، ومن ثبت صلاحهُ كالعشرة المبشرين بالجنة، فإنهم يفارقون النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- من جهة إيمانِه -صلىٰ الله عليه وسلم- وصلاحه لا يوازيه صلاح غيره من الخلق.

ورابعها: أن عدم فعل الصحابة لذلك بعضهم من بعض، يدل علىٰ أنَّ هذا خصيصة من خصائص النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- عن أمَّته وليس للأمَّة كلها، أولًا ليس هناك لفظ عام يقتضي دخول الأمة وإنما هو أفعال الصحابة التي أقرها النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- وهذه لا تقتضي العموم وعِلَّة القياس، قياس الصَّالحين علىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- غير موجودة؛ وإذا فقد القياس شرطًا من شروطه؛ كان قياسًا باطلًا.

إذا فهمنا هذا -إن شاء الله تعالىٰ- ترتبت لنا أمور التَّبرك -بإذن الله تعالىٰ- وتتَّضح وتظهر صورتها، إذًا هذا الأمر واضح جدًّا -إن شاء الله-.

لماذا .. التبرُّك؟ التبرك يا إخوان، تبرك الذَّوات ما معناه؟ لا بدَّ أن نفهم معنىٰ التبرك بالذات، ما معناه؟ هذا المعنىٰ -إن شاء الله- يتبين لنا في أحوال التبرك التي نفهم بها الباب.

أحوال التبرك ثلاثة: أن يتبرك الإنسان بشجر أو حجر أو إنسان أو نحوها؛ لجلب نفع أو دفع مضرَّة، وهذا شرك في ربوبيَّة الله؛ لأنه يعتقد أن هذا الإنسان يدفع عنك الضر أو يجلب لك المنفعة، وهذا شرك في الربوبيَّة؛ لأنه اعتقادُ مدبِّر مع الله -عز وجل- في ملكه، وهذا كثير في الذين يطلبون البركة اليوم من بعض من يزعمون أنهم أولياء، يقول له عبارة قديمة: "جئناك ببضاعة مُزجاة فأوفي لنا الكيل، وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين"، يوفي الكيل ماذا؟ قصده أنه يفيض عليه من فيوضاته الإيمانيَّة والروحانيَّة وغيرها مما يحصل به طمأنينة قلبه ويحصل به قوة في إيمانه ويحصل به سعة في رزقه، بفيوضاته، هذا شرك؛ لأنهم يعتقدون أن هؤلاء الأولياء لهم تأثير علىٰ غيرهم بالاتصال به، التبرك به، أو يأخذ لُعابَه ويمص اللعاب، -أجلَّكم الله- أحيانًا ببوله وغائطِه، وغير ذلك مما هو معلوم، وهذا موجود الآن وبكثرة للأسف، هذا شرك في ربوبية الله، خروج عن ملة الإسلام.

والحالة الثانية: أن يعتقد أو أن يتبرَّك بالشخص أو بهذا الشيء معتقدًا أنه إذا تبرك به فإن ذلك الشخص يرضىٰ عنه لهذا التعظيم الذي فعله ولهذا التقرُّب الذي فعله، وبالتالي يرفع حوائجه وطلباته إلىٰ الله -عز وجل-، يعني يقول: أنا -هذا الولي-

أعتقد أنه لا يملك نفعًا ولا ضرًّا ولكن أنا أتقرب إلىٰ هذا الولي وأتمسح به أو أتبرك بقبره ونحو ذلك، لماذا؟ قال: لأنني إذا فعلت هذا الفعل علىٰ وجه التَّعظيم والتَّقرب لهذا الولي، رضي هذا الولي عني، فرفع حاجاتي إلىٰ الله؛ ولهذا لما يُناقش هؤلاء، تناقشهم يقولون لك: أنا لا أعتقد أنه ينفع أو يضر، لكني أعتقد أنَّه مبارك وفيه بركة من جهة أني إذا تبرَّكت رضي عني، إذا رضي عني رفع حاجاتي إلىٰ الله، فهذا التبرُّك تبرُّك تعظيم وتقرُّب، وفعل هذا شركٌ في الألوهيَّة.

والثالث: أن يقول إني أتبرَّك به؛ لأنه سبب من الأسباب، لا أعتقد أنَّه ينفع ويضر ولا أعتقد أنَّه يرفع حاجتي إلىٰ الله؛ ولكني أتبرَّك به رجاءَ أنْ يقبلَ اللهُ عباداتي.

ما يقول أن يرفع هذا الإنسان أو هذا الشخص أعمالي إلىٰ الله؛ لقبولها، لا، يقول: أنا أتبرك بهذا الشخص وأرجو بهذا التبرك أن يكون سببًا لرفعة درجتي عند الله وقبول عملي، ونقول: هذا نوع من الشرك الأصغر؛ لأن هذا سبب لم يأذن به الله -عز وجل-، فاتخاذه سببًا وهو غير مأذونٍ به؛ فإنه يكون من الشرك الأصغر، بل هو من الأسباب المنهِي عنها كما يأتي في حديث الشجرة.

هذه هي الأحوال الثلاثة للتَّبرُّك.

يعني حكم التَّبرُّك هذا له ثلاثة أحوال: شرك في الألوهيَّة، شرك في الرُّبوبيَّة، شرك أصغر، طبعًا قد يُلبِّس عليكم ناس ما سمعتم، يقول لك: أنت تقول الشَّافعي مشرك؛ لأنه تبرك بثياب أحمد، قلنا له: التَّبرك بثياب أحمد هذه الرواية ما تصح أصلًا، سقطت، هم ما يستدلون إلا بأشياء واهية، أو بأشياء ثابتة في الصحيحين لكنها لا تدل علىٰ ما يقصدون، ودعْك عن بعضهم الذي يزعم كلما قال، قال: أجمع

العلماء، وهذه المسألة فيها خلاف وهو يكذب، إثبات الخلاف أو الإجماع يحتاج إلىٰ أو حكاية الإجماع أو الاختلاف تحتاج إلىٰ إثبات، وهذا الكلام الذي يقال كثيرًا، إجماع المخرِّفين؛ أما الحق، أهل الحق وأتباع الكتاب والسُّنَّة لا يلتبس عليهم الأمر مثل ما التبس علىٰ هؤلاء.

أن يتبرَّك الإنسان بآخر أو بشخص يعتقد أنَّه بهذا التَّبرُّك يجلب له هذا الشخص نفعًا أو يدفع عنه ضرًّا، هذا أولًا، أو هذا شرك في الرُّبوبيَّة.

وثانيا: أن يتبرَّك الإنسان بهذا الشَّخص تقربًا إليه وتعظيمًا له حتىٰ يرضىٰ عنه، فيرفع حاجاتِه إلىٰ الله -جل وعلا، وهذا شرك في الألوهيَّة؛ لأنه شرك الوسائط، هذا شرك الوسائط.

وثالثُها: أنْ يتبرَّك بهذا الشخص رجاءَ أن يكون هذا سببًا له عند الله لمغفرة ذنوبه ورفع درجاته، وهذا شرك في الأسباب وهو من الشِّرك الأصغر.

أريد أن أنبِّه علىٰ نقطةٍ مهمةٍ توضِّح الصُّورة أكبر: هناك فرق بين طلب بركة الشَّيء، وطلب البركة من الشيء، طلب البركة من الشيء شرك أكبر مخرجٌ من الملَّة، لو تأتي تقول يا رسول الله بارك لي في هذا، أشركتَ الشِّركَ الأكبر، وهناك طلب البركة في الشيء، أي أنَّ الشَّارع الحكيم إذا عيَّن شيئًا فيه بركة، فإنك تطلب هذه البركة ولكن علىٰ الوجه المشروع، يعني في النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- بركة، تطلب بركة النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-، في القرآن بركة، تطلب هذه البركة، لكنك لا تسأل رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- البركة، ولا تسأل الصالحين البركة، ولا تسأل أحدًا البركة، فإذا سألتها فقد دعوت غير الله مع الله، ودعوة غير الله مع الله

شركٌ، بقطع النظر عمن دعوت، قد تدعو نبيًّا، وقد تدعو مَلكًا، وقد تدعو من هو دون ذلك، فينبغي التَّفريق بين طلب البركة في الشيء، وطلبُ البركةِ من الشيء، تطلب منه البركة أن يمنحك البركة هذا شرك أكبر؛ ولهذا الذين يأتون إلىٰ ما يسمُّونهم المتصوفة وغيرهم، يقولون: نطلب من الشيخ البركة، ما هي البركة التي تطلبها من الشيخ؟ من الذي يمنحك البركة؟ هو الشيخ أم الله الذي يمنحك البركة؟

إن قلت: والله أنا أطلب من الشيخ أن يمنحني البركات والفيوضات وأن يمدني بالروحانيات والنورانيات كما يزعمون، هذا شرك أكبر مُخرج من الملَّة.

واحد تصافحه يفيض عليك الخير مجرد المصافحة، أو تأخذ شيئًا من ثيابه أو نحو ذلك، وتتبرَّك إليها وتنتقل إليك البركة، هذا -أعوذ بالله، ونسأل الله العافية- هذا شرك؛ ولهذا طواغيت مشركون بالله؛ لأنه يزعم أن من جاءَه وتبرك به وتقرب إليه فإنه يفيض عليه من فيوضات الخير، والنعم والفضل وإحسان الحال، وراحة البال -نسأل الله العافية-، هو يزعم أنه يفيض، والثاني يعتقد أنَّ هذا الولي وهذا الذي يزعم أنَّه وليْ بقدرته يفيض عليه.

لكن لو أنت ذهبت إلىٰ واحد رجل تعتقد فيه الصلاح قلت أنا أجلس معه ليُذكِّرَنا بالله، رجل فيه صلاح، فيه إيمان، يتذكر الله واليوم الآخر جلست معه، فهذا جاء ذكره في القرآن، ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وكما قال أبو الدَّرداء أو أبو ذرٍّ: "اجلس بنا نؤمن ساعة"، يعني نتذاكر الإيمان.

فهذا الإنسان الذي تذهب تسلم عليه، ترجو البركة من الله بالسَّلام عليه بأنك زرت رجلًا صالحًا، وزيارة الصُّلحاء مطلوبة لكن لا تعتقد أنه يفيض عليك بالفيوضات، هذا محرم، لكن زيارة الصالحين ثبت في الحديث الصحيح في قصة الرجل الذي زار أخًا له في قرية فأرصد الله علىٰ مَدْرَجَتِه ملكًا، الحديث المشهور، وقال النبي –صلىٰ الله عليه وسلم– عن الله تعالىٰ: «وجبتْ محبَّتي للمُتحابين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتجاورين فيَّ»، إذًا هذا طريق من طرق إصلاح القلوب بمخالطة الصالحين والاستماع إلىٰ الإيمان والعمل الصالح، هذا ما فيه شيء، لكن كونه يذهب علىٰ اعتقاد أن هذا يفيض عليه، فالذي يزعم أنه يفيض هذا مشرك، والذي يزعم أنَّ هذا يفيض عليه ويستمد هذا منه هذا مشرك مثله، وهذا للأسف كثير وموجود، حتىٰ –نسأل الله العافية– جهارًا نهارًا علىٰ وسائل الإعلام.

يعني:

شرك الألوهية معناه: يأتون مثلًا للبدوي، ويقول لك أنا أعتقد أنَّ البدوي هذا لا ينفع ولا يضر، النفع والضر بيد الله، هم يقولون هكذا أو كثير منهم؛ لكن يقول أنا أتبرَّك بالبدوي وأتمسَّح بجدار المبنىٰ ضريح البدوي وغيره؛ لأني إذا فعلت ذلك كان فيه تعظيم للمقبور وتقرُّب إليه؛ لأنهم كما يزعمون أحياء في قبورهم، وبالتالي إذا فعلت ذلك ماذا يصنع؟ وسألته الرزق والمغفرة وكذا هو يرفع حاجاتي إلىٰ الله، أنا ما أسأل أنه يرزق، أنا أطلب منه، أقول ارفع حاجتي إلىٰ الله، فهو إذا رفع الحاجة معناه؛ أنك قصدت هذا، جعلته واسطة بينك وبين الله، وجعل الوسائط بين العبد وبين الله هو شرك الألوهية.

{...}

التبرُّك فعلي، والدعاء قولي والأعمال معروفة، سؤال: لما الإنسان يدعو الله رب اغفر لي أو يدعو الولي أو بني آدم يقول لفلان اللهم اغفر لي، هذا قول، لما هو يتبرك ويعتقد أنه إذا تبرك رفع هذا الولي حاجاته إلىٰ الله بدون ما يدعوه، يقول: أنا أتبرك به، آتي لفلان وأعتقد أنه ولي وأتبرك به وأتمسح به وكذا، أنا أعتقد أني إذا فعلت هذا يرضىٰ عني، هو الآن تقرَّب إليه وعظَّمه، هل هذا هو الذي يعطيك حاجاتك؟ قال: لا، من الذي يعطيك حاجاتك؟ قال: الله الذي يعطيني حاجاتي، لماذا تعظِّم هذا وتتقرَّب إليه بهذا الشكل؟ قال: لأني إذا فعلت ذلك رضي عني، إذا رضي عني رفع أعمالي وحاجاتي إلىٰ الله، لماذا؟ يقول نحن مذنبون وهم صالحون صُلحاء. فالمذنب عندهم لا يتصل بربه إنما يجعل بينه وبين الله واسطة، وهذا في الحقيقة هو عبارة عن خليط يعني لا تجد واحدًا مشركًا بالتبرك إلا مشركًا في الدعاء، عبادته عبارة عن خليط من الشِّركيات -نسأل الله العافية-.

إذًا هذا هو التبرك، وأرجو أن يكون واضحًا؛ لأنه في الحقيقة مهم، ثم ننتقل بعد ذلك إلىٰ ما ذكره الشيخ -رحمه الله- من الأدلة.

الدليل الأول: قال: وقول الله تَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾.

أولاً: الَّلات هي عبارة عن صخرة بيضاء، وهذه الصخرة كانت هي في الأول رجلاً يَلتُّ السَّويقَ فمات فبنوا علىٰ قبره بناية لهذه الصَّخرة البيضاء العظيمة المنقوش عليها، وهذا بيتٌ في الطائف بهذا الشكل كانت ثقيف تعبده من دون الله.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾، والعزَّىٰ: هي شجرة بين مكةَ والطائف، شجرة كبيرة وضعوا عليها أستارًا، وهذه عزَّىٰ التي يعبدُها مشركوا مكة، ولهذا قالوا في اليوم التي جاءت فيه غزوة بدر: العزَّىٰ لنا ولا عزَّىٰ لكم، يقولونه للمسلمين، يفتخرون بالعزَّىٰ؛ لأنها هي الإله الذي يعبدونه من دون الله -عز وجل-.

والثالث: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾، مناة الثالثة أي الثالثة في هؤلاء الاثنتين المتقدمين الأخرىٰ الوضيعة؛ لأنها كل ما عُبد من دون الله -سبحانه وتعالىٰ- فهو وضيع، وهذه طبعًا كانت بين مكة والمدينة وهي أيضًا عبارة عن بناية عظيمة أو بيت كانت تعبُدُه الأوس وخزاعة في قريش، هذه أصل الأصنام الثلاثة.

قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ* أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ١٩- ٢٣].

طبعًا أولًا المؤلف -رحمه الله- أراد بهذه الآية أن يبين لنا أو أن يبين بهذه الآية وجه ارتباط الآية بالتبويب أن من اتخذ شجرة أو حجرًا أو شخصًا أو غير ذلك يتبرك به فإنه مثله مثل هؤلاء الذين عبدوا الَّلات والعزَّىٰ ومَناة، إن كان شِركه أكبر فهو مثلهم، وإن كان شركه أصغر فهو بالاستدلال بالشرك علىٰ ما نزل في الشرك الأصغر، وهذا استعمله الصحابة، يعني ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ بجامع العكوف؛لأن هنا تبرُّك وهنا يتبركون بها، يعتقدون أنها ترفع أعمالهم إلىٰ الله -عز وجل-، وهذا مثل ما قلنا سابقًا.

الثانية: أنه قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾، يعني الله قال ما أنزل الله بها من سلطان، يعني أن فعلكم هذا ما أنزل الله به من سلطان لا بهذه ولا بهذه الأمثال.

إذًا التبرك ما أنزل الله به من سلطان، يعني التبرك الممنوع ما أنزل الله به من سلطان؛ فكأنه يقول من زعم أنه يصح التبرُّك بالشجر والحجر ونحوهما فليأتِ ببرهان ودليل وحجة من الله -عز وجل-، فكما أن المشركين ليس لهم حجة أنتم أيضًا ليس لكم حجة علىٰ فِعلكُم هذا؛ كأنه يبطل حجتهم.

إذًا فالآية فيها وجهان:

أولاً: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾، هو تشبيهُ حال من تبرَّك بشجر وحجر بحال مَنْ عبد اللَّات والعزَّىٰ ومناة؛ لأن الكل يطلب منها البركة، إن كان فعله شركًا أكبر، فهو مماثل له، وإن كان فعله شركًا أصغر فهو من الاستدلال بالشِّرك الأكبر علىٰ الشرك الأصغر.

الثانية أن قوله: ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾؛ أي فكما أن هذه الأوثان وعبادتها ما أنزل الله بها من سلطان، فكذلك هذا التبرك الذي يفعل ما أنزل الله به من سلطان، ومن كان عنده سلطان وجب عليه أن يظهره، وقلنا لكم ليس عندهم أي دليل، الدليل دائرٌ بين حديث موضوع أو ضعيف جدًّا ، ولا يصح، وبين فهم خاطئ أو تحريف مقصود، لا يخرج عن هذا؛ هذا الدليل الأول.

الدليل الثاني: عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اَللَّيْثِيِّ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اَللَّهِ صَلَّىٰ اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ حُنَيْنٍ»، يعني غزوة حنين، وحنين في الطائف «وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ!»، في رواية «ونحن حدثان عهدٍ بكفر»، «وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا»، يَعْكُفُونَ ويَعكِفُون وهما قراءتان سبعيتان في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، {يَعْكِفُون}.

«وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ!»، ينوطون؛ أي يعلقون وأنواط «جمع نوط»، وهو مصدر سمي به المفعول، يقال ناطه بكذا إذا علَّقه به «ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ» يعني أخرىٰ، «فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اَللَّهِ اِجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ»، يعني يريدون من النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أن يجعل لهم هذه السدرة ينوطون؛ يعلقون عليها أسلحتهم كما فعل أولئك بها، بمعنىٰ أنهم يطلبون بها البركة، ينوطون بها الأسلحة ليطلبوا بركتها.

فأجابه النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- بقوله: «اَللَّهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا اَلسُّنَنُ! قُلْتُمْ - وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾»، النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قال: «اَللَّهُ أَكْبَرُ»، في الرواية الأخرىٰ للحديث قال: «سبحان الله»، وهذا إنكار من النبي -عليه الصلاة والسلام-، هذا أولًا، قال: «اَللَّهُ أَكْبَرُ».

ثم قال: «إِنَّهَا اَلسُّنَنُ!» يعني اتبعتم سنن من خلَوْ قبلكُم، «قُلْتُمْ - وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾»، طبعًا هذه قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ

﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَامُوسَىٰ اجْعَل لَّنَا إِلَهـًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ﴾ علىٰ ماذا؟ ﴿عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾، يعكفون عليها لماذا؟ لعبادتها، فـ﴿ قَالُوا يَامُوسَىٰ اجْعَل لَّنَا إِلَهـًا﴾ بعد أن تجاوز بهم البحر ونجاهم الله، طائفة من مع موسىٰ قالت: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهـًا﴾، وهذا لقلة علمهم، ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهـًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ يعني يريدون أن يجعل لهم صنمًا يعكفون عنده كما فعل أولئك، فقال موسىٰ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي؛ تجهلون عظمة الله وتجهلون حقَّه عليكم في توحيدكم له.

﴿إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩]، أي متبَّر أي؛ مهلك، يعني هذه العبادة مهلكة، يعني لا وجود لها من الناحية الشرعيَّة، ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي الذي يعملونه باطل، والدَّليل علىٰ بطلانه أن أصحابه خاسرون في الآخرة، ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنـًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣]؛ ولهذا هم من الخاسرين؛ لأنهم يعلمون أن هذا عملاً باطلاً لا حظ لهم فيه ينفعهم في الآخرة.

ثم قال النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-: «لَتَرْكَبُنَّ»، واللام هنا لام القسم، فذكر النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- قال: «لَتَرْكَبُنَّ» يعني: والله لتركبن، ثم أكده بالنون الثَّقيلة، وهذا دليل علىٰ أن هذه الأمَّة تتبع سَنَنَ أو سُنَنَ من قبلها، أي تتَّبِع طرق من قَبلها.

إذًا هذا تأكيد من النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أنهم «لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» أو «سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، جاء في الصحيحين في حديث أبي سعيد « حتَّىٰ لو

دخلُوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتمُوه »، فمعنىٰ ذلك: أن هذه الأمة يأتي عليها ما أتىٰ علىٰ الأمم من الوقوع في ما نهىٰ الله -عز وجل- عنه حتىٰ الشِّرك، وهذا ردٌّ علىٰ الذين يزعمون أنَّ الشرك لا يقع في هذه الأمَّة، وسيأتي -إن شاء الله- له باب خاص، «باب ما جاء أن هذه الأمة تعبد الأوثان».

«لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، إذًا النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أنكر عليهم وشبَّه فعلهم بفعل قوم موسىٰ إذ طلبوه، لكن قوم موسىٰ فعلوا ولَّما فعلوا؟ أنكر عليهم موسىٰ ما فعلوه، ما ذكر أنهم فعلوا، الصَّحابة هؤلاء الذين هم حدثاء عهد بإسلام، هل هم فعلوا أو ما فعلوا؟ هم ما فعلوا ولو فعلوا لأشركوا، لكن هم ما فعلوا، فهذا استعلام فقط، يظنُّون أن هذا فعل صحيح، فالنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أنكر عليهم ذلك ولم يفعلوه -رضوان الله تعالىٰ عليهم-، ولذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب يقول: "ما فعلوا ولو فعلوا لأشركوا"؛ لكنهم ما فعلوا.

إذًا هذا حديث أبي واقد اللَّيثي، حديث أبي واقد اللَّيثي هنا النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أو هذا الحديث الذي فيه تعليق الأسلحة علىٰ الشجرة طلبًا لبركتها، يعني هذه الشجرة إذا علَّقوا عليها الأسلحة، هذه الأسلحة ستصير أسلحة قوية ونافذة وفاعلة، وتصيب ما أرادوا إصابته، يعني: أيُّ بركة هذه التي تفيض عليهم من الشجرة هذه؟!

إذا رأيت هذه بركة ذاتية، هذه بركة ذاتيَّة عندهم، يعتقدون هذا، النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- أنكر عليهم وبيَّن لهم أنَّ هذا كما قال أصحاب موسىٰ: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾؛ فجعل طلب الصحابة -رضي الله عنهم- تعليق الأسلحة علىٰ

الشجرة لبركتها أو طلبًا لبركتها كفعل قوم موسىٰ حين عكفوا علىٰ الأصنام، فإن كان الإنسان يعتقد أن هذه الشجرة سبب للبركة، وأما أنها سبب للبركة فقط، فهذا شرك أصغر.

أما إذا اعتقد الاستقلال بالتأثير فهي شرك أكبر، وبالتالي فالصَّحابة لا يُظن بهم أنهم طلبوا الشرك الأكبر؛ لأن الشرك الأصغر يَخفىٰ. زيْن، أو تكون حتَّىٰ من المسائل الخفية أحيانًا، لكن قد يكون هذا من الشرك الأصغر وقد يكون من الأكبر، فإن كان من الأصغر فهو استدلال بما جاء في الشرك الأكبر علىٰ الأصغر، وإن كان من الأكبر فقد طابق الآية؛ لأن القوم الذين عكفوا علىٰ الأصنام رَجاء بركتها هؤلاء طلبوا البركة أو أرادوا تعليق الأسلحة علىٰ الشجرة رجاء بركتها.

هذا الحديث حديث أبي واقد اللَّيثي -رضي الله عنه- قال المؤلفُ -رحمه الله-: (رَوَاهُ اَلتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ)، طبعًا هذا الحديث حديث رواه الترمذي وغيره وهو حديث مروي من طرق، عن الزُّهري عن سنان بن أبي سنان الدُّؤلي، وقد صححه الإمام الترمذي، وصححه ابن حبان، وصححه جماعة من العلماء بعد ذلك منهم العلَّامة ابن القيم، وأيضًا صحَّحه الحافظ ابن حجر وغيرهم صحَّحوا هذا الحديث، هذا الحديث مصحَّح عند العلماء -رحمهم الله؛ لكن فيه تنبيه مهم: وهو أنَّ هذا الحديث عَزاهُ ابن القيم في "إغاثة اللهفان" للبُخاري، وقد عزاه قبله أيضًا الطَّرطوشي غير البخاري، وكذلك الشَّاطبي في "الاعتصام" قال بالصَّحيح، طبعًا: وهذه النِّسبة للبُخاري ليست بصواب، الحديث ليس في البخاري وإنه في "جامع

الترمذي" و"سنن النسائي الكبرىٰ"، وفي "مسند أحمد" وفي "صحيح ابن حبان" وفي غيرهما من دَوَاوِين السُّنَّة.

والله تعالىٰ أعلم.

جزاكم الله خيرًا.

"كتاب التوحيد"

للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب

المجلس التاسع

فضيلة الشيخ/ عبد العزيز بن محمد السعيد

{بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ اَلنَّذْرُ لِغَيْرِ اَللَّهِ:

وَقَوْلُ اَللَّهِ تَعَالَى ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧].

وَقَوْلُهُ ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اَللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا- أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ -صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اَللَّهَ فَلْيُطِعْهُ وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اَللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ»)}.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمدُ لله وصلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله ومن اهتدى بهداه.

هذا (بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ اَلنَّذْرُ لِغَيْرِ اَللَّهِ) و"مِنْ" هنا على ما جرى في الأبواب السابقة، "مِنْ" للتبعيض؛ أي من أنواع الشرك النذر لغير الله، والنذر: هو إلزامُ المكلَّفِ نفسَه شيئًا أو قربةً ليست واجبة عليه بأصلِ الشرع، فمن نذر أن يصوم لله شهرًا أو شهرين فهذا يسمى نذرًا؛ لأن الله عزَّ وجلَّ لم يوجب صيام شهرٍ إلا شهر رمضان، إذن فهذا ألزم نفسه بقربةٍ ليست واجبةً عليه بأصل في الشرع، هذا هو النذر.

وقوله: (بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ اَلنَّذْرُ لِغَيْرِ اَللَّهِ)، لا بدَّ أن نعرف أن النذر قربةٌ وعبادةٌ يتقرب بها الناذرُ إلى من نذر له، فالذي يقول: للهِ عليَّ نذرٌ أن أعتمر، أو يقول: لله عليَّ نذر أن أتصدق بكذا وكذا، وهذا نذر شيئًا لله تعالى؛ أي تقرب به إلى الله تعالى، والذي ينذر للمخلوق حقيقته يتقرَّب للمخلوق بهذه العبادة، فكان هذا شركًا بالله -عز وجل- لأنه شرك تقرُّب وتوجُّه إلى مخلوق، والدلائل على ذلك ذَكرها المؤلف -رحمه الله- في ما ذكره من الآيات من الآيتين والحديث، وسنبينها -إن شاء الله جل وعلا- في موضعها.

طبعًا النذر يُقطع فيه النظر عن المنذور له من المخلوقين، بمعنى أن أيَّ مخلوق نُذر له فقد وقع الإنسان في الشرك، بقطع النظر عن هذا المخلوق؛ ولهذا الإمام -رحمه الله تعالى- قال: (اَلنَّذْرُ لِغَيْرِ اَللَّهِ)، ولم يعين أحدًا من المخلوقين، فدل ذلك على أن النذر لأي مخلوق كائن من كان هو شرك بالله -عز وجل- لأنه صرفٌ للعبادة لغير الله -عز وجل-، وعلى هذا نقول مَن نذر لغير الله فهو كمن صلَّى وصام وحجَّ لغير الله -عز وجل-؛ لأن الكل قُربة يتقرب بها إلى الله -عز وجل-.

استشهد المؤلف بقول الله -جل وعلا-: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾، فقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ هذه جاءت في سياق ذكر صفات الأبرار: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٥- ٧]، فهذه صفة من صفات الأبرار، وما كان من صفةٍ من صفات الأبرار أو وقَع ثناءٌ من الله -عز وجل- على فاعله أو وُعد فاعلُه بالثواب فهو قربة، وقد أجمع العلماء -رحمهم الله- على أن من صرف قربة لغير الله فقد أشرك، فنفهم من هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أن الله تعالى لمَّا امتدحهم بالوفاء بالنذر؛ دلَّ ذلك على أن الوفاء

بالنذر قربة وطاعة لله -عز وجل-، فالنذر في هذه الحال يعتبر عبادةً، يُعدُّ عبادة من العبادات؛ ولهذا في حديث عمران بن حصين الثابت في الصحيحين لما ذكر القوم في آخر الزمان، وذكر من صفاتهم قال: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ يَنْذُرُونَ وَلاَ يُوفُونَ».

فهذا ذمٌّ لهم، فهذا حكاية لحالهم على جهة الذم، وأهل الإيمان والإسلام والأبرار ذكر الله -عز وجل- وفاءَهم بالنذر، فدل ذلك على أن النذرَ عبادة وإلا لم يمتدح الله تعالى الموفين به ولم يذم النبي -صلى الله عليه وسلم- الذين لا يوفون بالنذر، وإذا كان قربةً وعبادة، فصرفه لغير الله شرك بالله -عز وجل-، وهذا إجماع من العلماء -رحمهم الله- على أن من صَرف عبادة لغير الله فقد أشرك، والإمام محمد بن عبد الوهاب منهجه في هذا الكتاب في بيان التوحيد والشرك أنه أحيانًا إذا كان في المسألة نص على الشرك ذكره وإلا لم يكن قرَّر أو جاء بما يدل على أن هذا الشيء عبادة، لأنه متى حُكم على هذا الشيء بأنه عبادة؛ حُكم على صرفه لغير الله بأنه شرك بإجماع أهل العلم، فعندنا أمران.

الأمر الأول: إثبات أن هذا الشيء عبادة، وهذا ثبت عندنا في النذر بقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾.

إذن الوفاء بالنذر عبادة، فدل ذلك على أن النذر من القُربات التي يتقرب بها إلى الله -عز وجل-، فصرفه لأي مخلوق شرك، فالمقدمة الأولى إثبات أنها عبادة، والمقدمة الثانية الحكم عليه بأنه شرك استنادًا إلى إجماع العلماء، على أن من صرف عبادة أيًّا كانت هذه العبادة لمخلوقٍ، فقد أشرك بالله -عز وجل، والنذر ليس فيه تفصيل في الشرك، الشرك فيه شرك أكبر سواء قلَّ النذر أو كثر، اختلف المنذور له من المخلوقين ولم يختلف، الذي ينذر للأنبياء كمن ينذر للأشجار والأحجار، الكل

في الحكم سواء شرك أكبر مخرجٌ من ملة الإسلام، فالنذر ليس فيه شرك أصغر، كله من باب الشرك الأكبر، ولهذا قوله: (بَابٌ مِنْ اَلشِّرْكِ)؛ أي بابٌ من الشرك الأكبر النذر لغير الله.

إذن هذه هي الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اَللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾، ما وجه الاستدلال بها على أن النذرَ عبادة؟

أولًا: أن الله –عز وجل– عطفَها على النفقة، ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ والنفقة عبادةٌ فالمعطوف عليها من جنسها، فدلَّ ذلك على أن النذر عبادة؛ لأنه قال: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾، والنفقاتُ قُرَب وعبادات، إذن لما عطف قوله تعالى: ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ وجعل الحكم واحدًا ﴿فَإِنَّ اَللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾، دل ذلك على أنهما سواء، إذن النذر عبادة فمن صَرفه لغير الله فقد أشرك، وهو كالنفقة، النفقة عبادة من قصدَ بها غير وجه الله فقد أشرك، هذا أولًا.

ثانيًا: أن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اَللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ﴾ هنا "ما" شرطية تجزم فعلين، ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ﴾، ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ﴾ هذا فعلُ الشرط، قوله: ﴿فَإِنَّ اَللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ الجملة اسمية المقترنة بالفاء في محل جزم جواب الشرط، إذن الجوابُ ما هو؟ ﴿فَإِنَّ اَللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾، ما معنى يعلمه؟ الله يعلم كل شيء، هنا: ﴿فَإِنَّ اَللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ المقصود به: ما يترتب على العلم، يعني كأن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اَللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ هو ترتيبٌ لِلازم هذا العلم وهو الثواب، فقوله: ﴿فَإِنَّ اَللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ كأنه يقول فإن الله يثيب عليه، لكن هنا الله يعلمه فيثيب عليه، فكان الحكم هنا متعلق بالثواب، لو قال قائل: ما الدليل عليه؟

قلنا: الدليل عليه أنه قال بعدها: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ فجعلهم طائفتين، طائفة ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ يعني الذين أنفقوا أو نذروا لغير الله هؤلاء ظالمون، معاقَبون لا ثواب لهم، لكن لما قال: ﴿فَإِنَّ اَللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ دلَّ ذلك على أن الله -عز وجل- رتَّب الثواب على النفقة والنذر، وما كان فاعلُه مثابًا عليه فهو قربةٌ، فصرفُه لغير الله شرك بالله -عز وجل-.

هذا ما يتعلق بقول الله -عز وجل-: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾.

قال: (وَفِي اَلصَّحِيحِ)؛ أي وفي صحيح البخاري، وقد نبهنا على أن كلمة (وَفِي اَلصَّحِيحِ) تُطلق على ما في الصحيحين أحيانًا وتطلق أحيانًا على ما في أحدهما، وهذا جرى عليه أهل العلم من قبلُ، يعني من قبل الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-.

قال: (وَفِي اَلصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا- أَنَّ رَسُولَ اَللَّهِ -صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اَللَّهَ فَلْيُطِعْهُ, وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اَللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ»).

فالاستدلال بهذا الحديث يمكن أن نقول له وجهان، الوجه الأول: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر من نذَر نذْر طاعةٍ أن يوفيَ بهذا النذر؛ لأنه قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اَللَّهَ فَلْيُطِعْهُ»، أي فليطعه بالوفاء بهذا النذر، فعُلم بهذا أن النذر قربة من القرب، فصرفُه لغير الله -عز وجل- شرك، هذا وجهٌ.

والإمام محمد بن عبد الوهاب نبَّه على هذه المسألة أو ما تدل عليه هذه الأدلة في المسألة الثانية من مسائل الكتاب، قال: إذا ثبتَ كونُه عبادة فصرفه إلى غير الله شرك، وهذا يشمل الآيتين المتقدمتين والحديثَ هذا: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اَللَّهَ

فَلْيُطِعْهُ»، إذن هو النذر ثبت أن الوفاء به عبادة، إذن النذر من أجناس العبادات التي لا يجوز صرفها لغير الله –عز وجل–.

ثم الوجه الثاني: أن الإمام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله– أراد أن يُبَيِّن، أو أورد هذا الحديث ليبين به الآيتين السابقتين، وهو أن قوله –عز وجل–: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ يُقصد به في الآيتين نذر الطاعة وليس نذر المعصية، فالحديث (تنصيصٌ) هو فيه فائدة أن النذر عبادة وفائدة أخرى هو أن الحديث بيان لمعنى النذر أو النذر الذي يجب الوفاء في الآيتين المذكورتين وهو أنه يجب الوفاء بنذر الطاعة والقربة دون غيره من النذر، هذا ما يتعلق بباب النذر.

{(بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ.

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ –رضي الله عنها– قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ –صلى الله عليه وسلم– يَقُولُ «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ)}.

(بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ)، والاستعاذة بغير الله ليس فيها شيء من الشرك الأصغر وإنما هي من الشرك الأكبر مثلُها مثل النذر، والاستعاذة: طلب العَوْذ وهو الالتجاءُ، وقوله: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ)، الاستعاذة: هي طَلَب العَوْذ، وإذا جئنا إلى الأدلة الشرعية وجدنا أن الاستعاذة شرك من عدَّة جهات: شيء ذكره المؤلف وهو ما سيأتي بيانه بالآيات، وشيء نذكُره، فلو نظرنا إلى الاستعاذة؛ وجدنا أن الله –عز وجل– أمرنا بها، بأن نستعيذ به –سبحانه وتعالى– ولم يأمرنا أن نستعيذ بمخلوق، قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ

﴿هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، في "فصلت"، وفي "الأعراف" ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، لاحظ كلها ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

إذن الاستعاذة كلها بالله، وجاء الأمر بها، يعني جاءنا أمر بأن نستعيذ بالله، وما أُمرنا به كان من القُربات وصرفه لغير الله تعالى شرك، وإذا نظرنا إلى الاستعاذة، الاستعاذة قلنا هي طلب العوذ التي جاء، من الله هذا هو المُتعَين، ومن غير الله هل يجوز لك أن تستعيذ أو لا؟ هل تستعيذ بغير الله يجوز أو لا يجوز؟ هذا هو الكلام عليه، لكن لما الله أمرنا بها فدل على أنها عبادة، فصرفُها لغير الله شرك.

جاءت الاستعاذة بالمخلوق، في حديث أبي مسعود في صحيح مسلم لمَّا كان يضرِب عبدَه، كان مُغضبًا، يعني غضب غضبًا شديدًا، فضرب العبدَ والعبدُ قال: أعوذ بالله، والنبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «اعْلَم أبا مسعود»، وضرب العبدَ؛ لأن أبا مسعود البدري –رضي الله عنه– مع شدة غضبه لم يفهم صوت النبي –صلى الله عليه وسلم–، والعبد رأى النبي –عليه الصلاة والسلام–، سمع صوته، فقال: أعوذ برسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فهذا استعاذة برسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فكيف يُقال إن الاستعاذة بغير الله تعالى شرك؟

يُقال في هذا، وحتى في آخر الزمان يعوذ قوم بالبيت، يلجئون إليه بالبيت، يعني الاستعاذة: هي الالتجاء والاعتصام، وهي الهروب من الشيء المخوف إلى ما يعصِم

الإنسان منه، هذا هو معنى الاستعاذة، في آخر الزمان يعوذُ قوم بالبيت، يعني يلوذون به ويلتجئون إليه ويعتصمون به، فهل نقول هؤلاء المشركون؟! وامرأة قالت لأم سلمة وهذا ثابت في الصحيح، استعاذت بأم سلمة والنبي -صلى الله عليه وسلم- يسمع ولم يقل ذلك شرك، فقال أهل العلم -رحمهم الله-: إن الاستعاذةَ إذا نظرنا إليها أولًا من جهة الإطلاق والعموم فلا أحدَ يُستعاذ بالله على جهة الإطلاق والعموم إلا الله تعالى، بمعنى أن الإنسان لو قال أستعيذ برسول الله -صلى الله عليه وسلم- ...، أو أعوذ بك يا رسول الله من أي شيء؟ بشيء مخصوصٍ يقتضيه القول أو المقام ولاَّ يستعيذ به من كل شيء؟ يستعيذ به من النار، يستعيذ به من عذاب القبر، ويستعيذ به من الأعداء، ويستعيذ به من كل شيء، هذا لا يكون إلا لله، فالاستعاذة المُطلَقة العامة هذه مختصة بالله -عز وجل- لا يشركه فيها أحد.

الثاني: الاستعاذة في الظاهر والباطن، يعني سواءً كانت استعاذة هي التجاءٌ بالفعل أو بالقول والباطن مع اطمئنان الباطن إلى المستعاذ به أنه يعيذه، فهذه لا تكون إلا لله، حتى لو استعاذ الإنسان بمخلوق، استعاذ من شرِّ عدوٍّ أقبل عليه والتجأ إليه من هذا العدو هو مطمئن وقلبه مطمئن أنه لا يدفع هذا العدو إلا الله، ولكن هؤلاء أو هذه المخلوقات هي عبارة عن أسباب فقط، فالاستعاذة في الظاهر والباطن لا تكون إلا لله، والاستعاذة بالمخلوق على هذا النحو شركٌ أكبرُ مخرجٌ من الملَّة.

الثالث: الاستعاذة بالغائب، أو بالحي الحاضر ولكنه غير قادر، معنى غير قادر يعني أن جنس هذا الشيء ليس باستطاعة المخلوق، فإذا قال لفلان: أعوذ بك من النار، أعوذ بك من عذاب الله، أعوذ بك أن أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ أَوْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، هذا لا يملكه إلا الله، لو قال: أعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن؛ لأن هذا لا يملكه

إلا الله، فهذا صحيح حاضر ولكنه غير قادر على هذا الشيء، أو كان غائبًا مثل الجن كما سيأتي في الآية، إذا كان غائبًا مثل الجن أو كان غائبًا من المخلوقات، يعني ليس بحاضر، فأنت الآن لمَّا تستعيذ بمخلوق.مثلاً أنت الآن في الرياض تستعيذ بمخلوق في مكة، هذا غير حاضر، ما معنى الاستعاذة به؟ معناها: أن هذا الذي هناك مطلع على ما يعمله المخلوقون، وأن سمعه يسع، والذي سمعه يسعُ السموات والأرض هو الله وحده لا شريك له، ليس المخلوق، أو أن هذا العبد الذي سأل أو استعاذ بهذا المخلوق صوتُه يبلغ الآفاق، هذا هو حقيقته، هذا هو الحقيقة.

أنت الآن لمَّا يأتي يسأل مخلوق ويستعيذ به وليس قادرًا، هذا موجود الآن، مثلًا يقول إذا أحلَّ به مصيبة وهذا موجود يا إخوان في الكتب مؤلفة ومصنفة وموجودة من الضلال، يقول إذا حصل لك شيء فاستغثْ أو استعذ بعبد القادر الجِيلاني، عبد القادر ميِّت، ما هو بغائب، ميت وهذا أسوأ، يعني عندنا الغائب هذا ليس بحي، هذا ميت، لماذا تستعيذ به؟ عبد القادر الآن موجود في العراق قبره -رحمه الله-، هؤلاء الذين يدعونه وما لازم قولهم هذا؟ معناه أن عبد القادر هذا يسمع الأصوات بكل اللغات واللهجات ويسمعها في وقت واحد ويجيب السُّؤلَ، وهذا لا يقدر عليه إلا الله -سبحانه وتعالى-، في الحي الغائب هذا حي غائب، وإذا كان غائبًا، هذه الغيبة كيف هو يسمع الصوت إلا بإثبات سمعٍ يضاهي سمع الله -عز وجل-؟! والله -عز وجل- ليس كمثله شيء، ثم إن الاستعاذة بالغائب أو بغير القادر أو حتى بالأموات هي تحتاج إلى دليل يثبت ذلك، لماذا؟

لأن الأدلة كلها دالة على وجوب الاستعاذة بالله؛ لأنه جاء على صيغة الأمر ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ هذا هو الأصل، ماذا يخرج من هذا الأصل؟ يخرج منه ما دلَّ الدليل الشرعي عليه، وهو الحي الحاضر القادر هو الذي يُستعاذ به فقط، بثبوت ذلك في

سنَّة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإذا التجأ أحد إلى مخلوق؛ ليعيذه هذا المخلوق من شر عدو أو نحو ذلك، فنقول إذا كان حيًّا قادرًا على ذلك فإن هذا من الاستعاذة الجائزة لكن بشرط أن يكون ذلك من باب السبب وليس من باب الاعتماد، بمعنى أن القلب مطمئن على الله وملتجئ إلى الله وحده لا شريك له، لكن هذا من الأسباب التي جعلها الله -عز وجل- سببًا، مثلها مثل السيف في قتال العدو أو الدبابة أو الطائرة أو غيرها، هذه أسباب يُدفع بها شر العدو، وكذلك الالتجاء إلى المخلوق يُدفع به شر العدو، ولهذا كانوا في عهد الجاهلية وأقرَّه الإسلام على ذلك، هو إذا أراد أحد أن يدخل بلدًا ما، وكان يخشى على نفسه من أحد فيه، فإنه يستجير ويدخل في جيرة أحد الوُجهاء حتى لا يمسه أحد بهذا، وهذا هو نوع من الاستعاذة الفعلية، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فالاستجارة مثلها مثل الاستعاذة؛ لأنها دخول في ذمة المستجير، وهذا أيضًا دخول على المستعاذ به ليدفع شر المستعاذ منه، لكنه بهذه الصورة قادر وحاضر ليس بغائب.

وعلى هذا نقول: إن الأصل في الاستعاذة أن تكون بالله؛ لأن الله أمر بها، هذا هو الأصل، ويستثنى منها حالة واحدة وهي الحي الحاضر القادر، وهذا ثبت في السُّنَّة كما ثبت في حديث أبي مسعود، استعاذ برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكان موجودًا، حتى لا يشبه على بعض الناس؛ لأن بعض أهل البدع يقولون هذا استعاذ برسول الله، نقول صحيح استعاذ برسول الله ولا أحد يُنكر هذا، ما أحد يُنكر هذا أنه استعاذ برسول الله، لكن رسول الله هل هو كان ميتًا في تلك الفترة؟ هل كان غائبًا؟ هل استعاذ برسول الله -صلى الله عليه وسلم- في شيء ليس في قدرته -عليه الصلاة والسلام-؟ كل هذا ليس موجودًا بالحديث، هو استعاذ به من أجل أن يمنع أبا مسعود من ضربه فقط، وهذا شيء يقدر عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

وهو كان حاضرًا، لكن بعد وفاته هل أحد استعاذ به من الصحابة؟ ما أحدٌ استعاذ به، لم يستعذ به أحد من الصحابة.

إذا كان يجوز الاستعاذة برسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو بمخلوق، ممن تستعيذ به؟ تستعيذ به من مخلوق مثله أو من الخالق والمخلوق أيضًا، فلمَّا تقول يجوز الاستعاذة به، ممن؟ إن قلت تجوز الاستعاذة به، نقول لك تستعيذ به من الله؟ هذا يصلح؟ ما يصلح، تستعيذ به من مخلوق؟ ما الدليل على التخصيص؟ إما أنك تُعمِّم أو تُخصِّص، ونحن الحمد لله وبفضل الله لمَّا منَّ الله علينا بالتوحيد عرفنا بالأدلة التي بينها العلماء الفرقَ بين هذه، فالاستعاذة الشركية.

نعيدها مرة أخرى: إما تكون الاستعاذة المطلقة، هذه صورها، الاستعاذة المطلقة العامة من كل شيء، يستعيذ يقول أعوذ برسول الله ولاَّ أعوذ بالجن ولاَّ أعوذ بفلان، تعوذ به من ماذا؟ إذا لم يكن هناك شيء قولي أو مقام يقتضي التخصيص والتقييد وإلا كان شركًا؛ لأن الاستعاذة المطلقة بالله، تستعيذ به من كل شيء هذا لا يكون إلا في حق الله -عز وجل-، هذا أولًا.

ثانيًا: الاستعاذة في الظاهر والباطن، بمعنى أن الاستعاذة ليست هي فعل فقط أو قول فقط، لكن أيضًا هي تتعلق بالقلب، فإذا التجأ العبد إلى مخلوق فيما يقدر عليه المخلوق وهو حاضر لكن قلبَه معتمد على المخلوق، قلنا هذا شرك؛ لأنه اعتمد على المخلوق، والمخلوق إنما يُستعاذ به كسببٍ وليس اعتمادًا؛ لأن الله يقول: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، يعني لا تفروا إلى أحد غيري، هذا فرار، وقال الله -عز وجل- عن الذين تاب عليهم: ﴿وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨] -سبحانه وتعالى-.

إذن الالتجاء يكون إلى الله -عز وجل- في الظاهر والباطن، وأما في المخلوق إذا التجأت إليه فيما هو جائز شرعًا فإنما تلتجئ إليه؛ لكونه سببًا ولكن القلبَ معتمدٌ على الله، بمعنى أن هذا سبب من الأسباب قد يتخلَّف حصوله وقد ينفع الله -عز وجل- به، قد تلتجئ إلى إنسان ليعيذك من أحد؛ لئلا يؤذيك، فيؤذيك؛ لأن الله -عز وجل- لم يجعل هذا السبب نافذًا.

والثالث: الاستعاذة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق: الاستعاذة من النار، الاستعاذة من الفتن، الاستعاذة من أشياء كثيرة، هذه ما يقدر عليها إلا الله، وهذه من خصائص الله -عز وجل سبحانه وتعالى-، هذه ثلاثة.

الرابع: الاستعاذة بالغائب، من ميت أو حاضر غائب، الاستعاذة بالغائب، سواء أكان هذا الغائب غيبة موت أو غيبة حضور، فهذا أيضًا من الشرك بالله -عز وجل-.

يبقى الصورة التي خرجت من الاستعاذة -كما قلنا- هي الاستعاذة بالحيّ الحاضر فيما يقدر عليه، قلنا فيما يقدر عليه: في جنس ما يقدر عليه، لو أنا مثلًا فيه واحد مشلول وجاء إنسان يعتدي عليه، قلت يا فلان استعذتُ بك، هذا يقدر، جنس المخلوق يقدر على هذا الشيء، هذا ليس بشرك وإن كان هذا الفرد لا يستطيع، لكن جنسه يقدر عليه المخلوق، وهو دفع هذا الصائل عنك، هذا لا يسمَّى شركًا، فنفهم من هذا أن المقصود ما لا يقدر عليه؛ أي جنس الإنسان، لا يقدر عليه جنس الإنسان أو جنس المخلوق.

والدليل على خروج هذه المسألة وهي فيما يقدر عليه، قلنا: استعاذة أبي مسعود البدري -رضي الله عنه- وهو ثابت في صحيح مسلم، واستعاذة المرأة المخزومية بأم سلمة -رضي الله تعالى عنها- لما سرقت، فجاءت فعاذت بأم سلمة وهي عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يعني التجأتْ إلى أم سلمة، والله تعالى يقول قبل

ذلك وهي تصلح في الاستعاذة والاستغاثة كما سيأتي: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وإن كانت أخص بالاستغاثة من الاستعاذة كما سيأتي -إن شاء الله-، لكن دلالتها الإجمالية تصلح في الاستعاذة؛ ولهذا الاستعاذة والاستغاثة متماثلتان أو متقاربتان في هذا التفصيل المذكور.

وأيضًا ذكرنا الحديث الثابت أيضًا في صحيح مسلم وهو أنه سيعوذُ بالبيت يعني بمكة قوم ليس لهم منَعةٌ ولا عدد، يعني في آخر الزمان، قوم ليس لهم منعة ولا عدد ولا عدة، فهذه كلها تدل على جواز الاستعاذة بالمخلوق الحاضر فيما يقدر عليه، وأما غيره فالأصل المنع؛ لأن الله أمرنا بالاستعاذة به وحده -سبحانه وتعالى-، هذا الأصل أننا نمتثل الأمر ونستعيذ بالله فقط، إلا في الصورة المستثناة فقط.

قال: وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، هذه طبعًا آية من أول سورة "الجن"، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢]، هذا قاله الجن فيما ذكره الله عنه، قالوا: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، ثم ذكر على لسانهم أنهم ذكروا صفات للحال التي كان عليها المشركون، ومن ضمنها: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، أي أنه كان رجال من الإنس يستجيرون ويلتجئون برجال من الجن، فإذا جاء أحد إلى الوادي استعاذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه.

قال الله تعالى: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، الرهَق يُطلق على الإثم وعلى الطغيان والسَّفه، لما نأتي إلى الإثم ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ كما فسر ذلك ابن عباس وقتادة قالوا: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي إثمًا، من الذي زاد؟ هل هو رجال الإنس زادوا رجال الجن أو العكس؟ قال: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ﴾؛ أي فزاد رجالُ

الإنس رجالَ الجن ﴿رَهَقًا﴾ أي إثما؛ لأنهم لما استعاذوا بهم تعاظموا وطغوا وكثر سفههم، فصار الغير إذا جاء يستعيذ بهؤلاء الجن الذين صاروا يخيفون الناس ويستعيذ بهم هؤلاء الرجال من الإنس، فازدادوا بذلك إثمًا، أي ازداد هؤلاء الرجال من الجن إثمًا، لماذا؟ لأنهم حملوا غيرهم على الإشراك بالله -عز وجل- بهم، يعني أشركوا بهم، لما استعاذوا بهم أشركوا بهم، فكأن الجن حملوا الإنسَ على الإشراك بهم، فكانوا بذلك آثمين، يعني الجن.

وأيضًا فُسر والمعنى صحيح، فسِّر: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ أي وزاد رجالُ الجن رجالَ الإنس رهقًا، يعني العكس، لماذا؟ لأنهم لما خوفوا الإنس صار الإنس يستعيذون بسفهائهم أو بكبرائهم ليدفعوا عنهم هذا التخويف الذي يحدِثه هذا الجن لهم، فازداد هؤلاء الإنس إثمًا؛ لأنهم استعاذوا بغير الله -عز وجل-، فصار المستعيذ والمستعاذ به كلاهما آثمًا، باعتبار أن الجن حملوا الإنس على أن يستعيذوا بهم، ولمَّا استعاذوا بهم أعاذوهم فيما يزعمون، فتقبلوا الشرك، يعني تقبَّل رجالُ الجن، حملوا أول شيء رجال الإنس على الشرك، ثم تقبلوا هذا الشرك منهم، وافقوهم عليه وقبلوه وجعلوهم يشركون بهم، وأما الإنس فإنهم لما خوفهم المشركون أثموا؛ لأنهم لم يستعيذوا بالله، وإنما استعاذوا بالجن وهذا نوع من الإشراك بالله -عز وجل-.

ثم بعدما فهمنا هذه الآية نعود إلى دلالة هذه الآية على ما عَقد المؤلف له الترجمة.

فقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ﴾ هذه جاءت في سياق ما كان عليه المشركون، فدلَّ ذلك على أن من صفات المشركين الاستعاذة بغير الله -عز وجل-، وهو وصف مذموم، والدليل أنه قال: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ أي إثمًا، فهم آثمون بذلك، والذي يأثم هو المشرك فمن دونه، كلهم آثم، إذن هذه صفة ذمٍّ جاءت في سياق ما

كان عليه المشركون وأيضًا هذا السياق أكِّد بقوله -عز وجل-: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ كما في تفسير ابن عباس وقتادة فزادوهم إثمًا.

الوجه الثاني: أن هذه الآية فيها دليل على أنه لا يجوز دعاء الغائب؛ لأن الجن كانوا غائبين، ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، حتى النبي -صلى الله عليه وسلم- لما جاءوه في وادي نخلة اجتمعوا عليه والذي ذكره الله -عز وجل- في قوله: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يرهم ولم يثبت حديث أنه رآهم، اجتمعوا عليه لكن ما ثبت أنه رآهم -عليه الصلاة والسلام-، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، يجتمعون عليه جماعات، لكن لم ينقل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رآهم، بل أظن أنه ثبت في الحديث أنه لم يرهم -عليه الصلاة والسلام-؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾؛ لأنه ثبت في صحيح مسلم أن الجن خُلقوا من مارج من نار، فلما يتراءَى لك؛ لمَّا يُقال الجن يتراءَى لك هذه ليست هي حقيقة الجن، ما ترى الجنَّ على حقيقته، لا يُرى على حقيقته؛ لأن الله خلقه من مارج من نار، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجَانُّ من مَارِجٍ من نار، وخُلق بني آدم مما ذُكر لكم» من ترابٍ، هذه المخلوقات الثلاثة، هكذا ثبت في الصحيحين، فهم لا يُرَوا، والله يقول: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾، هم يرون الإنس ولكن الإنس لا يرونهم.

إذن فلما يقول: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ﴾، دل ذلك على أنه لا يجوز الاستعاذة بالغائب؛ لأن الجن غائبون، إذن مثله أو أولى بالحكم من كان ميتًا، وأيضًا يدخل في الحكم من كان حيًّا ولكنه غائب؛ لأنه مماثل

للجن في كونهم غائبين عن الإنسان، لا يراهم الإنسان ولا يدركهم، هذا هو معنى الآية الأولى التي ذكرها أو هذه الآية التي ذكرها الإمام -رحمه الله تعالى-.

الحديث الثاني: حديث خَوْلة بنت حكيم -رضي الله عنها- سمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ».

الإمام -رحمه الله- لما ذكر الاستعاذة في المسائل، قال: (الثَّانِيَةُ: كَوْنُهُ مِنَ الشِّرْكِ)، ثم المسألة الثالثة قال: (الِاسْتِدْلالُ عَلَى ذَلِكَ بِالحَدِيْثِ)، ويقول الإمام محمد بن عبد الوهاب يستدل بهذا الحديث على أن الاستعاذة بالمخلوق من الشرك، كيف استدل؟ قال الإمام محمد بن عبد الوهاب: (لِأَنَّ العُلَمَاءَ يَسْتَدِلُّونَ بِهِ)؛ يعني أن العلماء -رحمهم الله- يستدلون بهذا الحديث كما استدل به الدارمي في النقل عن بشر المريسي وغيره، استدلوا به (عَلَى أَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ غَيْرُ مَخْلُوْقَةٍ)، قالوا: لأنها لو كانت مخلوقة لكان الاستعاذة بها شرك، وهذا وجه الاستدلال.

والآن قال: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»؛ أي من شر ما فيه شر، وليس المراد به من كل المخلوقات؛ لأن فيه مخلوقات ليس فيها شرٌّ كالأنبياء والملائكة وغيرهم، فيه مخلوقات فيها خير وشر وفيها مخلوقات شر، «مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ» أي: من شرِّ ما فيه شر.

«مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ» نقول كلمات الله جاء الاستعاذة بها؛ لأنها صفة من صفاته -سبحانه وتعالى-، ولو كانت كلمات الله تعالى مخلوقة، لكان الاستعاذة بها شركًا، فدل ذلك على أن الاستعاذة بالمخلوق شرك، يعني نفهم أن السلف -رحمهم الله- لما أتوا يكررون أن كلمات الله -عز وجل- ليست

مخلوقة، ردًّا على الذين يزعمون أن كلام الله مخلوق، قالوا: لو كانت كلمات الله مخلوقة، لكان الاستعاذة بها استعاذة بمخلوق، والاستعاذة بالمخلوق شرك، هكذا قررها السلف، ولهذا الإمام جاء بهذا الحديث هنا اعتمادًا على تقرير السلف -رحمهم الله-؛ لأن كلام الله -عز وجل- غير مخلوق؛ لأنه لو كان مخلوقًا لم يجُز الاستعاذة به؛ لأنه حينئذٍ استعاذة بمخلوق، والاستعاذة بالمخلوق شرك، وهذا مُقرَّر عند العلماء في الردِّ على الجهمية، كما في "عثمان بن سعيد الدَّارمي" وغيره، ذكروا هذا الحديث وذكروا وجهَه، فالإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- جاء بهذا الحديث وذكره في المسائل لهذا الغرض؛ لبيان أنه شرك، هذا أولًا.

ثانيًا: أنه قال في الحديث: «لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ»، يعني «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ»، هذا الآن «لَمْ يَضُرَّهُ» مرتبٌ على ماذا؟ مرتب على القول: «فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ»، إذن إذا قال هذا القول لم يضره، وعدم لحاق الضرر به نوعٌ من أنواع الثواب أو نقول نوع من أنواع الثناء والمدح؛ لأن الإنسان لمَّا يقال له إذا فعلت كذا فلا يصيبك هذا، فما معناه؟ معناه حثُّ الشارع وتحريضُه على فعل هذا الشيء، وما رتب الله -عز وجل- عليه ثوابًا أو ثناءً ومدحًا فهو عبادةٌ، وصرف العبادة لغير الله -عز وجل- شرك، وهذا وجه آخر.

وأيضًا مِن الذي يتعلق به إذا نظرنا إليه مع الآية، أن الآية حكايةٌ عن حال أهل الإشراك، وهذه حكاية عن حالِ أهل التوحيد، فكأن الحديثَ فيه بيانٌ للفَرق بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وأهل الشرك يستعيذون بالمخلوق وأهل التوحيد يستعيذون بالخالق -سبحانه وتعالى-.

هذا ما يتعلق بباب الاستعاذة.